
عبد الوهاب مطاوع
أماكن فى القلب
الدار المصرية اللبنانية

أمـاكن فـى القلـب

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

رقم الإيداع : 24707 / 2007

الترقيم الدولي : 977-427-321-4

الطبعة الأولى : ذو الحجة 1428هـ - يناير 2008م
الطبعة الثانية : محرم 1430هـ - يناير 2009م

عبد الوهاب مطاوع

أماكن فى القلب

الدار المصرية اللبنانية


بسم الله الرحمن الرحيم

أنا أوَّلُ حُزْنٍ!

كنت أسيرُ فى دربٍ كساه العُشب
عندما سمعت فجأة أحدًا يقول:
هل تعرفنى؟
فالتفتُ إليها وقلت: لا أستطيع أن أتذكر اسمك.
قالتْ: أنا أول حزن كبير.. فى شبابك.
ثم همست: قلت مرة إنك سترعى حزنك إلى الأبد.
فاحمرَّ وجهى وقلت: نعم.. غير أن السنين مضت ونسيت!
وأخذت يدها فى يدى وقلتُ:.. ولكنك تغيرتِ
فقالت: ما كان حزنًا مرة.. أصبح الآن سلامًا!

طاغور فى ديوان "الهارب"

....

... إلى أول "حزنٍ كبيرٍ" فى حياة كل إنسانٍ
أهدى هذا الكتاب احترامًا.. لكل الأحزان!

عبد الوهاب مطاوع



قادته الـمصادفة إلى هذا الـمقهى الأنيق فانحرف إليه ليريح قدميه من التجوال بين الـمحلات التجارية. موقع مثالى لـمقهى يستريح فيه الـمشترون أثناء الشراء فلم يعجب لشغل معظم مقاعده بالـجالسين وإلى جوارهم أكياس الـمشتروات.

جاء الجارسون فطلب فنجان القهوة المعتاد.. وراح يتسلى بتأمل الجالسين حوله من رجال ونساء. عادة اكتسبها منذ فترة أن يتجول بين المحلات منفردًا بنفسه، ثم يجلس فى أول مقهى يصادفه ليستريح ويشرب فنجان القهوة ثم يواصل التجوال من جديد. المشى علاجه وسلواه وفترات الاستراحة القصيرة فى المقاهـى فرصتـه لكى يتأمـل الوجوه، ويحاول أن يستشف ما وراءها من شجون وأسرار. تلفت إلى يميـنه فتسمّرت عيناه على مشهد تمنى لو كان رساما ليخلده بريشته فى لوحة جميلة يرنو إليها كلَّ حين.

1

فإلى مائدة قريبة جلس رجلان يوليانه ظهريهما، وأمامهما جلست سيدة جميلة تألق وجهها جـميلاً ساحرًا بين كتفى الرجلـين.. فتعجب لملامـحه الـمتناسقة كأنها نحتها مثّـال يعبـد الـجمال.. وتعجب أكثر لشدة تشابـهه مع وجه فتاته الوديع.

رشف من فنجانه رشفة جديدة.. فرأى من فوق الفنجان الطفل الوليد يبكى.. وأمه تهدهده بحنان وصبر وابتسامتها الجميلة لا تفارق وجهها، فتمنى لو حمل عنها طفلها لتفرغ هى للعناية بنفسها.

مثلها كانت جميلة ووديعة.. ومثلها كانت تفيض حنانًا على كل من حولها، ومثلهم كان يخرج معها إلى المحلات التجارية يطوفان بها.. ثم يدعوها للاستراحة فى أول مقهى يصادفهما. فتلبى الدعوة مبتهجة.

كانت تحب التجوال بين المحلات التجارية.. ولا تطيق شراء شىء إلا إذا كان معها وسألته عن رأيه فيه وفى قيمته، باعتباره محاسبًا ناجحًا موعودًا بالنجاح! وعنها اكتسب هذه العادة وعرف الطريق إلى مقاهى الأسواق. رآها للمرة الأولى فى حفل قران شقيقه فلفتت نظره بجمالها وهدوئها وروحها الطيبة. سأل عنها شقيقته، فعرف أنها إحدى قريبات عروس شقيقه وتعيش وحيدة مع أمها وتعمل مدرسة. تأملها طوال الحفل فلاحظ معاملتها للجميع برقة واحترام، وبات ليلته مشغولاً بها. باحتراس سأل عنها عروس شقيقه، وطلب منها أن تجس نبضها تجاهه، فجاءت النتيجة مُبشِّرة. بعد شهرين من الخطبة اعترفت له بأنها علمت بسؤاله عنها فى حفل القران، وتمنته لنفسها، وترقبت الخطوة التالية من جانبه بقلق شديد.. غمرته بعدها بشلال من الحب الدافق، وحوَّلت أيامه إلى حلم جميل. حبيبتى نهر من الحب

كان يبحث عن مصب له.. ووجده فاستقام مجراه وترقرقت مياهه صافية. عذوبة الروح أبرز مزاياها.. أما وجهها فنبع من الجمال الوديع لا تملُّ العين الارتواء منه. قالت له قبل الزواج:

انتظرتك كل سنوات عمرى فلا تفارقنى بعد أن عثرت عليك.. فأجابها دامعًا:

وكيف يفارق الجسم روحه حتى لو أراد ذلك؟

تزوجا بعد عامين من الخطبة، تلازما خلالهما كل يوم بعد انتهاء العمل حتى المساء، واشتريا مستلزمات عشهما الصغير معا ورقة.. ورقة وتعاونا فى كل شىء بسماحة، فلم يمض أسبوع دون أن يطوفا بالمحلات أكثر من مرة، حتى ملابسها اشترتها معه قطعة بعد قطعة واسترشدت برأيه فيها، وكلما كلَّت أقدامهما التجوال تلمَّسا أول مقهى يصادفانه وجلسا فيه يتهامسان ويتناجيان. جلسا فى كل مقهى وسط المدينة، لكنه لم يكتشف هذا المقهى الأنيق إلا اليوم، فكأنما كان على موعد مع وجه هذه السيدة الجميلة التى تهز ذراعيها بحنان لتهدهد طفلها.. ترى مَن مِن هذين الرجلين زوجها؟ أيا كان زوجها فليسعدْ بها كما سعد هو بشريكة حياته حين ضمهما عشهما الصغير. ففى رحابة مضت الأيام سعيدة هادئة.. وتبدت له بعد الزواج مزاياها الحقيقية، فازداد افتتانا بها، واكتشف أنها من هذا النوع الفريد من

البشر الذى يصعب عليك أن تـختلف معه.. وإذا اختلفت تعذَّر عليك أن تتمادى فى الخلاف معه.. وإذا تماديت عجزت عن أن تضيق به أو تكرهه! أما عذوبة روحها فلقد اجتذبت إليها قلوب كل من تعاملت معهم من الأهل والـجيران وأصحاب الـمحلات القريبة من الـمسكن. أما سر جاذبيتها فلقـد عرفه منذ ارتبط بـها فلمس فيها حبًا صادقًا لكل الناس وعطفا عليهم، واستعدادًا مـخلصًا للعطاء لكل من يـحتاج إليها، فقال لنفسه: حبيبتى عطفٌ ورحمة فلتسعد بحياتـها كيفما تـحياها.

عامان مضيا كلمح البصر من عمر زواجهما.. فلم يشكُ خلالـهما من شىء، ولكن فتاته ساورها القلق بسبب تأخر الإنجاب.. فتكدَّرت بعض أوقاتـها.

وإرضاء لـها أجرى تـحاليله فلم تكشف عن شىء فيه.. وتنقل معها بين عيادات الأطباء، وراقبها بإشفاق وهى تتجرع الأدوية وتلتزم بالعلاج، وأطاعها راضيًا فيما يـخصه من تعليمات داعيًا ربَّه أن يـحقق لـها أمنياتـها لكى تـهدأ خواطرها.. أما هو فسيان عنده أنجبت الـملائكة أم لـم تنجب. ولـم تيأس من حلم الـحمل لـحظة، وأحست بمرارة الـخذلان مرتين فتعرضت للإجهاض الـمبكر وبكت طويلاً.. وساءت صحتها حتى توسل إليها ألا تعرض

نفسها للخطر مرة أخرى، ثم لاحت البشائر واعدة بتحقيق الأمانى فى المرة الثالثة فاستقر الحمل.. وتكور بطنها بجمل وسعدت به سعادة طاغية، فدعا لها من قلبه بالسلامة فى كل الأحوال.

ومضت معظم شهور الحمل وهى شبه راقدة دومًا على ظهرها.. وأمها وصديقاتها وجاراتها يتناوبن خدمتها بحماس.. وهى توزع شكرها وعرفانها بسخاء.. وبعد عودته من العمل، يخلص لخدمتها وحده. ويتفرغ لرعايتها، فيتلقى شكرها الباسم كل لحظة ويسمع وعدها المتكرر له بأن ترد له الجميل بعد الولادة.. وأن تنذر نفسها لخدمته طوال العمر!

وبلغت شهرها الثامن وهى تزداد جمالاً وشفافية، وجاءت أمها فى الصباح ذات يوم لتبدأ نوبتها فى الرعاية، فقبَّل زوجته وتلقى رجاءها التقليدى بألا تطول غيبته عنها، ثم خرج إلى العمل، فوجىء بمديره يكلفه بالسفر فورًا إلى فرع الهيئة بالإسماعيلية لمراجعة حساباته والعودة إليه بتقرير عاجل عنها فى المساء. حاول الاعتذار بأن حالة زوجته الصحية تستدعى وجوده بالقرب منها، لكن مديره أكد له أن المهمة لن تستغرق سوى ساعات. فتوجه إلى مهمته وعاد إلى مقر الهيئة فى المساء فاستقبله المدير واجمًا واستلم تقريره بغير تعليق، ثم طلب منه باقتضاب أن يتوجه إلى المستشفى لأن زوجته قد فاجأها الوضع خلال غيابه!

وهرول إلى المستشفى منزعجًا.. وصعد درجات السلم إلى غرفة الولادة مهرولاً فصدم بمرأى أم زوجته وصديقاتها وزوجة شقيقه يبكين فى حرقة. ساعات ثقيلة مضت قبل أن يستوعب الحقيقة القاسية ويعى أن زوجته الجميلة قد ماتت وهى تضع حملها، ويصدق أنها قد رحلت تاركة له طفلة غير مكتملة النمو.. وأن الطفلة قد حجزت فى الحضّانة للاعتناء بها. وأيام أثقل مضت قبل أن يميز الأشياء.. ويستعيد بعض قدرته على التركيز فيجيب سائله عن الاسم الذى يختاره لطفلته.. بأنه يسميها "عتاب"، كأنما يعاتب به الدنيا التى حرمته وحرمتها من أمها الحبيبة، وحتى هذا العزاء لم يدم طويلاً؛ فلقد تدهورت صحة الصغيرة سريعًا، وفشلت محاولات إنقاذها ولحقت بأمها الجميلة فى السماء.

لو عاشت طفلته لبلغت عمر هذا الوليد الذى تحمله أمه التى يرى وجهها الوديع الآن من بين كتفى هذين الرجلين.. ولو طالت حياة أمها لحملتها على ذراعيها، كما تحمل هذه السيدة طفلها وجلست فى مواجهته باسمة تهز ذراعها من حين لآخر وهى تتحدث إليه، لكن الأحلام القصيرة لا تطول، ولم يبق من عبق ذكراها سوى أنفاس شريكة العمر التى يسمعها تتردد إلى جواره وفى فراشه كل ليلة وهو يحاول النوم بلا جدوى، وسوى رائحتها الجميلة التى يشمها ويتنسمها فى كل شبر من العش الخالى.

وبعد أن فشلت المهدئات المختلفة فى مساعدته على اقتناص بضع ساعات من النوم معظم ليالى الشهور الماضية، نصحه طبيبه بأن يمشى على قدميه كل مساء لأطول فترة ممكنة لينهك جسده غاية الإنهاك. ويعود إلى بيته فى الليل فينام كالقتيل.. وتحير فى البداية أين يمشى، ثم قادته قدماه بغير إرادة إلى نفس المحلات التجارية التى كانا يتجولان فيها معا، فراح يتنقل بينها ويتشاغل بمشاهدة معروضاتها بذهن غائب، وكلما غلبه الإرهاق استراح قليلاً فى أول مقهى يصادفه.. واحتسى القهوة وأشعل سيجارته، وبحثت عيناه دائمًا عن أسرة صغيرة من زوج شاب وزوجة جميلة وطفل صغير ليجلس بالقرب منها ويتأملها ويتسمع حديثها داعيًا لها بقلبه بالسعادة واجتماع الشمل حتى نهاية العمر. وأسرف فى المشى واحتساء القهوة والتدخين، حتى أنذره الطبيب بأن صحته تسوء بدلاً من أن تتحسن، ونصحه بالامتناع عن التدخين والاعتدال فى شرب القهوة.. لكن أنَّى للقلب الحزين أن يستجيب لنصائح العقل المجردة؟

... وأفاق من أفكاره على صوت حركة صادر من مائدة الأسرة التى يرْقبها ورأى الزوجة الجميلة تنهض استعدادًا لمغادرة المقهى، وسمعها تعتذر شاكرة لأحد الرجلين الذى حاول أن يحمل عنها طفلها، ثم تحتضن الطفل وتسير فى المقدمة فحزم أمره سريعًا، وقرر أن يتابع الأسرة السعيدة لبعض الوقت لعله يزداد ارتواء من وجهها

الجميل الذى أعاد الحياة إلى وجه زوجته.. فكأنما استعارته منها بعد الرحيل لتواصل به إمتاع العيون!

.. استدعى الجارسون بإشارة متعجلة.. ومدَّ يده إلى جيبه ليخرج النقود، فإذا بأسرة أخرى وزوجة وطفل صغير تدخل المقهى من اليسار وتتجه إلى مائدة أخرى قريبة.. فتأمل وجه الزوجة الجديدة ذاهلاً لشبهه الغريب بوجه زوجته.. وراقبها باهتمام شديد وهى تضع طفلها على المائدة ريثما تصلح له ملابسه ثم تحمله مرة أخرى على صدرها.. فتراخت يده عن النقود فى جيبه وثبتت عيناه على الوجه الحنون.. وتراخى جسمه فى مقعده.. وهو يقول للجارسون الواقف أمامه منتظرًا الحساب:

فنجان قهوة آخر.. من فضلك!

قالت له وهو يستعد لمغادرة الشقة فى الصباح:

لا تنس أن تذهب إلى عملى وتقدم لى طلب الأجازة الغارضة.

فأكد لها بهزة من رأسه أنه يذكر الأمر ولن ينساه، ثم حمل حقيبته الصغيرة ولمس خدها بيده لمسة خفيفة وغادر الشقة.

راقبته وهو يغلق الباب ويختفى وراءه، ثم استدرات لتبدأ مهمتها التى تغيبت عن عملها اليوم من أجلها، فرأت لفافة الساندوتش الذى أعدته له منسية على مائدة الطعام بجوار كوب الشاى الفارغ، فأسرعت بها إلى النافذة وانتظرت حتى رأته يخرج من باب البيت القديم وصاحت به:

كمال!

فرفع رأسه إليها متسائلاً:

فألقت إليه اللفافة فى كيسها المصنوع من البلاستيك فى حذر، فتلقاها بين يديه باسما.. ولوَّح لها شاكرًا ولوَّحت له باسمة.. ثم دخلت إلى غرفة نومها فبدَّلت قميص النوم بفستان قديم شبه ممزق.. ستقوم بتنفيض الشقة القديمة كلها ثم كنسها.. ومسح بلاطها الكابى.. وستغسل ملابس الأسرة

الصغـيرة كلها وحين تنتهى من كل ذلك ستبدأ فى إعداد طعام العشاء.

وتوثَّبت لأداء مهمتها بحماس، فرفعت السجاجيد المتهالكة وكوَّمتها فوق مائدة الطعام، ووضعت أكوام الغسيل فى الغسالة.. ثم أدارت الراديو.. وحملت المكنسة وبدأت مهمتها بحماس..

وسط تراب الأرضية.. انبعث صوت عبد الـحليم العذب يغنى أغنيتها القديمة الـمحبوبة: أنا لك على طول.. خليك ليا.. فرقت لـها مشاعرها.. وترطب بها وجدانـها. لكن هل كانت تتصور أن تسفر الأحلام الوردية عن هذا الواقع الـجاف؟

لقد عرفته وهما طالبان بالسنة الثالثة بالكلية، لفت نظرها بأدبه وأمانة تصرفاته ورجولته، واهتمامه بأمرها. فتلقت رسائل نظراته الصامتة بترحيب، وفى الوقت المناسب تـجرأ على مفاتـحتها بحبه، فوجد أرضها مهيأة وملبية لنداء الـحب، تعاهدا على أن يتشاركا رحلة الـحياة، ويكون كل منهما للآخر حتى النهاية. وبعد تخرجهما بأسابيع طلبت منه أن يتقدم لخطبتها، ليعفيها من معاناتـها مع أمها التى تلح عليها بقبول خطبة شاب من أقاربـها يعمل تاجرًا ومستعد بإمكانيات الزواج، بقوة الحب والخوف عليه من الضياع فاتح أباه الـموظف السابق على الـمعاش، الذى يعيش معه وحيدًا بعد رحيل

الأم وزواج الشقيقتين، وطلب منه مساندته فى الدفاع عن حبه. خلقت الوحدة التى جمعت بينهما صداقة عميقة. أعانت الأب على فهم مشاعر ابنه فقبل أن يتقدم لوالد فتاته رغم التحفظات. شاب بلا عمل.. وبلا مسكن مستقل.. ولا مال موروث ولا أمل فى تحسن أحواله خلال وقت قصير.. فكيف يتقدم باسمه طالبا يد فتاته. لكن نداء القلب طاغ.. وعاطفة الأب لا ترضى له بالخذلان، فصحب ابنه إلى بيت أبيها المدير العام، وصارحه بكل الظروف وتحمل الحرج وهو يجيب عن أسئلة الأب المتتالية بلا.. لا عمل الآن لكنه سيعمل قريبًا كما يعمل الشباب فى مثل سنه.. لا شقة مستقلة لكن شقتنا واسعة وأنا رجل وحيد ولن يضيقا بوجودى فى غرفتى.. وإذا ضاقا بى فسوف أوزع إقامتى بين شقتهما.. وبين بيت الأسرة القديم فى بلدتى حيث تعيش شقيقتى الكبرى، لا مال لدينا لكننا أسرة طيبة من أصل طيب والناس بأخلاقهم ودينهم وليس بمالهم. ولم يرفضه والد فتاته لكن أمها كانت قاسية ولم ترحم شيخوخته وضعفه، وانهالت عليه بالأسئلة المحرجة، وتلقت إجاباته عنها بسخرية مقنعة لم يفطن لها الأب الشيخ وإنما تأذى منها فتاها.. وخرج الاثنان من بيتها مهزومين.. لكن الفتاة لم تسكت على الهزيمة.. وتصدت لأمها بحزم، صرخت فى وجهها: ترفضين قريبك الثرى.. لتتزوجى من "شحاذ" لا يملك شيئًا بدعوى الحب،

إن الحب سيقفز من النافذة بعد شهور من الزواج حين تحاصركما الديون.. وتعانين من التقشف والحرمان. لكن الفتاة لم تتنازل عن حبها، وشجعت فتاها على أن يمضي فى طريقه، وسعدت بكل خطوة حققها على طريق الحلم السعيد. عمل بوظيفة حكومية وعملت بعده بشهور. تنقل بين الأعمال الإضافية بعد الظهر حتى كان يعمل فى بعض الأوقات من الصباح حتى منتصف الليل ولا يراها إلا يوم الجمعة. وكلما تجمع فى يده مبلغ صغير ادخره معها. أعطاه أبوه كل ما تبقى معه من مدخرات قليلة.. وأقرضته شقيقتاه كل مدخراتهما.. مع منحة صغيرة..

وبما يشبه المعجزة استطاع أن يسد على أم فتاته كل الأبواب، ويقدم لفتاته الشبكة والمهر.. ويجدد الشقة.. ولم يبق إلا تحديد موعد الزفاف.. ولا شيء يرضى الأم أو يخفف من امتعاضها، فحتى صباح يوم عقد القران حاولت أن تغرى ابنتها بالتراجع، ولوحت لها بما سيقدمه لها قريبها من حياة مريحة ومسكن لائق.. فأصمَّت الفتاة أذنيها عن فحيح أمها، وتزوجا، وأخلى لهما الأب العجوز الشقة وسافر إلى بلدته لمدة أسابيع، ولم يعد حتى ذهبت إليه هى مع زوجها المحبوب يدعوانه للعودة إلى بيته. ونعما بالحب والسعادة رغم جفاف الحياة، وبعد زواجهما بعام رحل الأب عن الحياة فبكته الزوجة الشابة كثيرًا.. وذكرت له رفقه بها وعطفه عليها.

وأنجبا طفلهما الوحيد فزادت أعباء الحياة.. وتكاثرت سحب الهموم فى السماء الصافية مع استمرارهما فى سداد ديون الزواج، فحتى الشغالة غير المنتظمة التى كانت تقوم بتنظيف البيت مرة كل أسبوع لم تقوَ على الاستمرار فى دفع أجرها.. وفضلت أن توفره لمطالب الطفل الوليد والحياة. وكلما استعدت لمعركة النظافة أودعت طفلها ليبيت ليلته لدى أمها، وتحملت سهام كلماتها الناقدة بصبر واحتمال، وفى بداية كل شهر تجلس إلى مائدة الطعام.. وتضع مرتبها على مرتب زوجها من عمله الصباحى والمسائى.. ثم تفتح كراسة البيت وتغرق فى حسابات معقدة باذلة المستحيل لكى تفى نقودهما بالمطالب الضرورية وأقساط الديون. وتقسم النقود إلى أكوام صغيرة.. ثم تعيد تقسيمها. وتعيد حساباتها.. ويبقى دائمًا مطلب ضرورى لا سبيل إلى الوفاء به!

ويحاول زوجها التخفيف عنها بالتنازل عن أى مطلب شخصى له.. ويلح عليها، ألا تهمل مطالبها الشخصية.. فلا تسمع لرجائه.. وتقود سفينة حياتها بحكمة قبطان لا يسمح لمشاعره بالتأثير على قراراته!

وكلما اصطدما بمطلب طارئ.. كمرض مفاجئ للطفل أو لها.. لجأ إلى شقيقتيه يقترض منهما. ولجأت هى إلى أبيها تطلب مساعدته فيساعدها سرًا بغير أن تعلم أمها.

انتهت من كنس الشقة فحملت جردل الماء من الحمام وألقته على الأرض.. فساح الماء فيها.. وبهمة غريبة انحنت تمسح الأرض وتحاول جلاء بلاطها الكابى بفرشاة خشنة. لو رأتها أمها فى هذا الفستان الممزق لقالت لها بلهجتها الساخرة:

سلامات يا حب!

ولو رآها مديرها المتصابى الذى حاول المستحيل معها لإغرائها بالطلاق من زوجها ملوحا لها بالشقة الفاخرة فى الحى الراقى.. والسيارة.. وشقة المصيف، لشمت فيها.. لكن هيهات أن تسعد النفس بالأشياء إذا لم تسعد أصلا بالإنسان، فحتى خلافاتها مع زوجها المحبوب خلافات حب تأنس بها حين تستعيدها فى ذاكرتها.. غضب منها حين صرفت الشغالة وقامت هى بعملها واتهمها بأنها تشعره بالذنب تجاهها وخاصمها يومًا طويلاً إذا لم ترجع عن قرارها. فلم تدعه حتى بات ليلته راضيًا ومتنازلاً عن معارضته.. ويغضب منها حين ترفض الذهاب معه إلى الطبيب ليعالج آلام ظهرها مفضلة توفير أجره.. ومكتفية بالمسكنات، ويتهمها بأنها تطعنه فى رجولته وإحساسه بالمسئولية عنها. ويخاصمها أو تخاصمه.. ثم لا تمضى ساعات حتى يتصافيا وقد تستجيب لإلحاحه راضية. وغضبت هى أيضًا منه أكثر من مرة حين يضيق أحيانًا بكلمات أمها المهينة له، ويعلن

العصيان ويرفض الاستجابة لدعوتها بتناول الغداء مع أسرتها يوم الجمعة. فيظل بها حتى ترضى.. وقد يذهب معها كارها، ويتحمل ملاحظات أمها على فستان ابنتها الذى لم يتغير منذ شهور.. أو مقارناتها الجارحة بين حياتها وحياة فلانة ابنة شقيقتها التى لا يقدم لها زوجها فى المناسبات إلا الهدايا الذهبية.. ويستأجر لها شقة فى المصيف، ويقضى معها أجازة نصف السنة فى أسوان، ويشترك فى نادٍ راقٍ تذهب إليه كل صباح.. ويعطيها مصروفًا شخصيًا سخيًا لا يسألها كيف تنفقه.

فيمضى الزيارة مكتئبًا.. ويعود معها إلى البيت ساهمًا.. ولا تفلح محاولاتها للتسرية عنه.. وقد ينفجر فى وجهها ويعرض عليها الطلاق لتعيش الحياة التى ترضى عنها أمها.. ويتعكر صفو الحياة يومين أو ثلاثة.. ثم تمضى سفينة الحب فى اتجاهها متحدية الأمواج الطارئة ويتواصل الصفاء.

أما أزمتها الحقيقية فقد وقعت بعد خمس سنوات من الزواج حين طلب منها أن تستقيل من عملها، وتتفرغ له ولطفلها حتى تستريح أمها وتكف عن اتهامها له بأنه يسلبها مرتبها، فلا يبقى لها منه ما تستطيع أن تشترى به حتى حذاء جديدًا، تجهمت السماء تلك المرة بسحب ثقيلة لم يفلح نسيم الحب فى تبديدها، وتمسك بموقفه

وتمسكت بالرفض... وهددها.. فقبلت التحدى وهددته، وعاد إلى الشقة فى المساء فوجد الظلام يخيم عليها والشقة خالية من حبيبة القلب وطفلهما الجميل فعرف أن طائر الخلاف قد حلَّق بعيدًا فى أجوائهما، ورفض أن يذهب إلى بيت أسرتها ليعيدها إلى عشهما.. وبات ليلته حزينًا مكتئبًا. وغاب طائر الحب عن بيته أياما متوالية.. تدخلت بينهما شقيقته الكبرى وناصرت زوجته فى موقفها، وأكدت له أن فتاته أكثر واقعية منه وترى أن عملها لصالح أسرتها وطفلهما.

ومن حق الطفل عليهما أن يتنازل عن كبريائه واعتباراته الشخصية لصالحه، لكنه رفض رغم اقتناعه الداخلى بإخلاص دوافعها أن يذهب إلى بيت أسرتها لاسترضائها. تواصلت الوساطات بينهما وأعلنت الزوجة المحبة أنها على استعداد لأن تحصل من عملها على أجازة دون مرتب، وتتفرغ لبيتها لعام أو عامين لإرضاء زوجها، ورغم أن جفاف حياتهما سيزداد قسوة، وصرخت أمها فيها محذرة.. وطالبت بإصرار بأن يتنازل زوجها عن مطلبه الخاص بالعمل نهائيًا، وأن يأتى راضخًا لاستعادة زوجته، وإلا فليطلقها ويدعها لمستقبل أفضل مع غيره.. وتمادت فى جبروتها فحددت له مهلة أسبوعين.. إن لم يأتِ لاسترضاء زوجته فسوف ترغمها على طلب الطلاق منه بالمحكمة!

مضت أيام المهلة ثقيلة حتى كادت تنفد.. وهى تنتظر أن يأتى إليها زوجها المحبوب.. وأمها نشوى بإحساس الانتصار وتؤكد لها كل يوم أنه لم يكن يستحقها.. وأنه لن يأتى لاستعادتها.

وراجع هو نفسه طويلاً.. ثم قرر أن ينقذ الحب من الغرق فى بحر العناد والكبرياء، فخرج من عمله المسائى إلى بيت شقيقته، وطلب منها أن تذهب غدًا إلى بيت أسرة زوجته، وتعلنهم بأنه سيجىء لاسترداد زوجته وطفله على شرط واحد هو ألا تثير معه أمها الموضوع الجارح وأن تكف عنه لسانها ووعدته شقيقته بأن تفعل. وخرج من بيتها عائدًا إلى مسكنه الخالى.. فأدار المفتاح فى الباب ودخل مكتئبًا فإذا بصيص من النور فى الردهة الصغيرة، تعجب حين رآه وتأكد من أنه قد نسيه مضاء عند خروجه فى الصباح.. وأضاء نور الصالة فرأى أطباقًا مغطاة على المائدة.. رفعها فوجد طعام العشاء الذى اعتاد أن يجده فى موضعه فى الأيام السعيدة، فانتفض قلبه فرحًا وجرى إلى غرفة النوم فوجد زوجته الحبيبة ترقد فى سلام وإلى جوارها طفلها السعيد! فلم يتمالك نفسه وانحنى على جبهتها يقبلها بحنان واستيقظت فنظرت إليه عاتبة.. ونظر إليها ممتنا وقال لها:

لماذا لم تنتظرينى للغد.. لقد رتبت مع أختى أن آتى إليك غدًا.

فأجابته باسمة:

إننى أحسن منك وقلبى أرق من قلبك الحجرى!

فحنى رأسه معترفًا ومسلمًـا وقبَّل يدها شاكرًا.

لم تتكرر المحنة فى حياتهما مرة أخرى.. وتعلما منها ألا تتعدى خلافاتهما العابرة حدود شقتهما.. وتنازل عن مطلبه باستقالتها من عملها، وسعد بها وتحمل من أجلها سهام أمها الجارحة، وأصبحت لحظة العشاء التى تجمعهما فى الليل.. هى واحتهما التى تذوب فيها كل المتاعب والمعاناة.. واعتاد أن يسألها من حين لآخر:

ألم تندمى على زواجك من زوج مكافح مثلى؟

فتجيبه باسمة:

لا يندم على الحب إلا جاحد لا يستحقه!

وتواصلت الحياة بينهما رضيَّة يسعدان بكل إنجاز صغير يحققانه فيها على طريق تخفيف الجفاف والمعاناة..

وانتهت من مهمتها المرهقة الأخيرة ولمعت الشقة القديمة ببريق النظافة والذوق الجميل. فدخلت إلى الحمام واغتسلت.. وبدلت فستانها الممزق ببنطلون الجينز الذى تحتفظ به من أيام الجامعة وبلوزة برتقالية جميلة. وتأملت وجهها فى المرآة قليلاً وسرحت شعرها.. ثم نهضت إلى الثلاجة فأخرجت الطعام ورصَّت الأطباق على مائدة السفرة.

فسمعت صرير المفتاح فى الباب.. ودخل زوجها يمسك بيده طفله الذى مر ببيت أسرتها ليعيده.. فأسرع إليها الطفل متهللا وحملته هى ـ وقبّلته ـ وأعطت خدها لزوجها ليقبله قبلة العودة التقليدية وجلس الثلاثة إلى مائدة الطعام مبتهجين.. وزوجها يتلفت حوله معجبًا برونق الشقة ونظافتها ويروى لها ما صادفه فى يومه.. وهى تسمع باسمة وسعيدة ثم قطعت الحديث بسؤال طرأ لها..

لم تقل لى هل انتهت زيارتك لماما بسلام وبغير "تحية" جديدة؟

فأجابها ضاحكا:

وهل هذا معقول.. لقد أسمعتنى بالطبع كلمة على الماشى عن حظ ابنة خالتك التى لديها شغالة تعطيها 300 جنيه فى الشهر.. فى حين تتمرمط بنات الناس الأخريات فى مسح البلاط مع الأزواج "الفقريين"

وضحكت عاليا.. وشاركها الضحك بلا ضغينة ثم قالت له:

وماذا قلت لها؟

وأجابها:

قلت لها سعيدة يا حماتى.

ثم أمسكت بيد ابنى وخرجت وصوت مصمصة شفاهها يلاحقنى على السلم، وانفجر الاثنان فى الضحك.. وشاركهما طفلهما الصغير ضحكهما بسعادة وبغير أن يفهم دواعيه أو أسبابه!

وجد نفسه طفلاً وحيدًا بين أبوين هادئى الطبع يدللانه ويرفقان به فأحبهما كثيرًا.. وحملت ذاكرته الطفولية لهما دائمًا أجمل الذكريات.

وكانت أمه رقيقة كالخيال، ابتسامتها حزينة وتحب الأغانى العاطفية وتدمع عيناها مع صوت عبد الحليم حافظ، فيسألها حزينًا عما يبكيها فتمسح دمعتها بأصابعها.. وتقبله.. وتداعبه فينسى حزنه العابر، وعلى عكس أمهات أصدقائه من أطفال العمارة والأقارب لم تكن تضربه ولا تخرج من بيتها كثيرًا، فإذا حان موعد الخروج ارتدت ملابسها، ووقفت أمام المرآة تنظر إلى وجهها ساهمة فيبكى طالبًا الخروج معها.. لكنها تلاطفه وتعتذر له بأنها ذاهبة مع أبيه إلى الطبيب وتعطيه قطع الحلوى وتصطحبه إلى شقة جيرانها ليلعب مع طفلهما، وهى تعده بألا تتأخر عنه كثيرًا ولا تنصرف إلا بعد أن يرضى.. ويبتسم ويعدها بألا يزعج جارتها خلال غيابها، ثم تضع يدها فى ذراع أبيه ويخرجان، ولا تطول غيبتهما كثيرًا فبعد ساعتين يعودان وفى أيديهما لفافة كبيرة من الدواء.. وقطعة شيكولاتة له فيستعيدانه من شقة الجيران شاكرين، ويرقبها وهى تتجرع الدواء متقززة، فيرق قلبه لها ويسألها عما بها..

فتشغله بالحديث عما يسأل عنه، أما وجهها الجميل فطالما أحبه وداعب شامته الصغيرة الجميلة فى ذقنها، وحاول كثيرًا أن ينزعها من مكانها بلا جدوى.

وبعد شهرين من التحاقه بمدرسة الحضانة للمرة الأولى، عاد إلى بيته ذات يوم فوجد عمته فى البيت ولم يجد أمه، وعرف أنها ستغيب أياما فى المستشفى لمرض طارىء، فتحرَّق شوقًا لأن يزورها فيه، لكن أباه رفض بإصرار، وحاولت عمته الشابة أن تعوضه غياب أمه، لكن هيهات أن يحلَّ شخص آخر فى موضع الأم الغائبة من قلبه. وطال غياب أمه. ولاحظ بقلق أن أباه يزداد وجومًا وانشغالا عنه يومًا بعد يوم، ورأى عمته تتحدث مع أبيه حديثًا هامسًا طويلاً وهما يـختلسان النظر إليه.. ثم شاهد عمته تبكى، فانقبض صدره وأحس بحزن غامض كئيب، وبعد أيام ازدحمت الشقة فجأة بالعمات والخالات.. وخيم الحزن والبكاء على المكان.

وجاء خاله الشاب يدعوه للذهاب معه إلى بيت جدته، فرحب بالعودة أملاً فى أن يجد أمه عندها، فلم يجدها هناك.. ووجد جو البيت هناك أكثر قتامة وحزنا، وبعد أيام أعاده أبوه إلى البيت، فأحسَّ حين دخله كأن الكآبة قد استقرت فيه ولن تغادره بعد ذلك أبدًا.. وسأله عن أمه، فأجابه الأب حزينًا بأنها قد سافرت وسوف يطول سفرها إلى وقت غير معلوم.. ورأى العطف فى عيون أبيه وخالاته، فأدرك بقلب

الطفل أن أمه ربما تكون قد سافرت إلى الرحلة التى لا يعود منها أحد، وحاول أن يتلهَّى عن كآبة البيت بألعابه والاستجابة لمداعبات الأهل والأصدقاء، لكن شيئًا ما كان يشعره دائمًـا بأن أيام السعادة الجميلة قد ولَّت ولن تعود، وبعد أسابيع من "سفر" أمه، عادت عمته الشابة إلى بيتها.. وخلا البيت عليه مع أبيه، وأصبح ينام فى حضن أبيه، ويوقظه فى الصباح ويساعده فى ارتداء ملابسه، ويصنع له إفطاره ثم يسلمه إلى أتوبيس المدرسة، كما كانت تفعل أمه الجميلة فى أيام الصفاء، ولغير سبب واضح فى ذهنه استسلم فجأة وهو يرتدى ملابسه فى الصباح بمعاونة أبيه، لنوبة طاغية من البكاء فبكى طويلاً وانهمرت دموعه بغزارة شديدة، وسأله أبوه عما يبكيه فلم يحر جوابًا ولم يعرف هو نفسه لماذا يبكى، وحين انتهى من بكائه، ربَّت أبوه على رأسه بعطف وغسل له وجهه ثم أكمل ارتداءه ملابسه، ولم يدعه أبوه يركب الأتوبيس فى ذلك اليوم، وإنما اصطحبه فى سيارة أجرة إلى المدرسة واشترى له كمية كبيرة من الحلوى فى الطريق.. ثم تركه فى فناء المدرسة ودخل إلى مبنى إدارتها، وبعد قليل خرج وانصرف وهو يداعبه، ويطالبه بأن يستمتع بالحلوى واللعب فى الفناء.

وبعد قليل من انصرافه، جاءته "الدادة" وأبلغته أن السيدة الناظرة تطلبه.. ومضى معها خائفًا.. ففوجىء بالناظرة التى لا يراها الأطفال فى الفناء إلا متجهمة ومحذرة من الخروج على النظام أو الـمشاغبة،

تستقبله بابتسامة عريضة، ثم تقربه منها وتسأله عن اسمه وفصله بحنان ذكَّره بحنان الأم الغائبة.. ثم تقول له إنها سمعت من المدرسات عن اجتهاده وحسن أخلاقه، فرأت أن تطلبه لتراه وتشجعه على الاستمرار فى تفوقه وتهذيبه، ثم فتحت درج مكتبها وأخرجت منه قطعة شيكولاته وأعطتها له.. وأذنت له بالانصراف باسمة فخرج ذاهلاً.. وراضيًا فى نفس الوقت.

وتكررت نوبات البكاء الصباحية بعد ذلك كثيرًا، فهاجمته من حين لآخر دون مقدمات فيستسلم لها لفترة طويلة، حتى أصبح أبوه يخشاها ويترقبها بخوف، وينقبض صدره حين تأتى وبعد كل نوبة مماثلة يسأله بعطف:

ماذا يبكيك؟

فيجيبه حائرًا:

لا أعرف!

ويصدقه أبوه مكتئبًا، لأنه لا يعرف حقًا سببًا مباشرًا للبكاء، لكن الحزن الغامض المستقر فى القلب الصغير لافتقاده ملاكه الحارس.. يبحث دائمًا عن ثغرة جديدة ليعبر عن نفسه، فيطل منها بهذه النوبات الطويلة وتساءل الأب حائرًا.. هل يعرض ابنه الصغير على طبيب نفسى فأجابه أخوته مؤكدين أن الزمن هو أكبر طبيب، وكفَّ

الصغير بالفعل عن السؤال عن موعد عودة أمه من سفرها بعد شهور من غيابها، واستقرت الحقيقة الكئيبة بشكل غامض فى وجدانه.. فبدأ يعتاد خلو حياته من صوت الأم الرقيق وابتسامتها الحزينة.

وعاد أبوه بعد قليل إلى نظام حياته السابق، فبدأت ساعات وحدته تطول فى المساء، فقد بدأ أبوه يـخرج من البيت بعد نوم الظهيرة، فيغلق باب الـمطبخ بالمفتاح حتى يأمن عليه من خطر الغاز، ويـحذره من الاقتراب من أكباس الكهرباء.. ويضع له على المائدة طعامه وشرابـه، ويوصيه بأن يلعب بألعابـه فى هدوء حتى يرجـع، وهـو يعـده بفسحة جـميلة فى نـهاية الأسبوع إذا نفَّـذ بدقـة كل التعليمات، ثم يـخرج فـلا يطول الوقت حتى يـرن جـرس التليفون، ويـجد أباه يسأله عما يفعل.. وهل واجه أية مشكلة، فيطمئنه ويعود لألعابه ويتكرر الاتصال أكثر من مرة.. ويتلقى الطفل الصغير أكثر من مكالمة من إحدى خالاته أو عماته.

ومضى عام طويل اعتاد فيه وحدته وكثرة انتقاله بين بيوت جدته والخالات والعمات لقضاء بضعة أيام فى كل منها، وحتى أمضى معظم أيام السنة ضيفًا على بيوت الآخرين، وافتقد الإحساس الذى كان يحسه وهو فى غرفته يلعب وحيدًا، وأمه فى الجوار تتحرك وتقوم بأعمال البيت وتناديه من حين لآخر لتعطيه كبد الدجاجة.. أو قطعة حلوى.. أو زجاجة مياه غازية.

ودعته جدته لأبيه ذات مرة للإقامة فى بيتها يومين، فلبَّى الدعوة سعيدًا، وجمع له أبوه معظم ملابسه فى حقيبة كبيرة، وحملها معه وهو يصطحبه إلى بيت الجدة.. وأمضى يومين فى بيتها واستأذنها بعدها فى العودة لبيته وحجرته وألعابه، لكنها استمهلته يومين آخرين لأنها لم "تشبع" بعد من صحبته فاستجاب لرجائها راضيًا..

وانتظر أن يحضر أبوه لاستعادته بعد اليومين الإضافيين فلم يحضر.. وتساءل عن أبيه خشية أن يكون قد "سافر" هو أيضًا وتركه وحيدًا فى بيت جدته، لكن الجدة طمأنته إلى أنه مشغول بأشياء هامة وسيحضر لاستعادته بعد أسبوع آخر، وانتظر فى قلق مجىء أبيه، فطال انتظاره أسبوعين آخرين فقد خلالهما كل صبره، ولم يكف عن السؤال لحظة عن أبيه، وعاودته نوبة البكاء الصباحية فجأة بعد أن كانت قد نسيته منذ شهور، فوقفت جدته أمامها حائرة ودامعة، وانتظمت النوبة فى موعدها الصباحى ثلاثة أيام متوالية، وفى اليوم الرابع جاءه أبوه، فقابله بالفرحة والبكاء واللوم الطويل لتركه كل هذه الفترة فى بيت جدته، فلطَّف الأب من غضبه وقبّله وأعلنه أنه قد جاء ليصطحبه إلى البيت وسيقدم له هناك مفاجأة ستسعده!

ونهض الطفل بحماس ليعود إلى بيته، فاتهمته جدته بالجحود وبأنه لا يحبها، فوقف يردد نظره بابتسامة حائرة بينها وبين أبيه، وقال لها إنه

يحبها كثيرًا، لكنه رغم ذلك يريد أن يعود إلى أبيه وبيته وغرفته! وجمعت الجدة ملابسه وحمل الأب الحقيبة وأمسك بيد الطفل وغادرا المسكن، ولم يطق صبرًا حين خرجا فسأله عن "المفاجأة"، واستمهله الأب حتى يصلا إلى البيت ويراها بنفسه، وكرر السؤال مرارًا وتلقى نفس الإجابة فبدأت الآمال الغامضة تداعب خياله، وتساءل فى نفسه.. هل تكون المفاجأة التى غاب أبوه من أجلها كل هذه الفترة هى عودة أمه من سفرها الطويل!

وانتهى أخيرًا الطريق الذى تصور أنه لا نهاية له.. ووثب درجات السلم أمام أبيه متعجلاً الوصول للشقة.. فوجد الضوء ينبعث من تحت بابها فتأكدت "ظنونه" وطرق الباب بيديه الصغيرتين منفعلاً ونادى:

افتحى يا ماما أنا وليد!

وانزعج الأب حين سمع النداء، وجاء من خلفه واجما وفتح باب الشقة فاندفع الطفل داخلا.. فرأى سيدة غريبة تقف فى ردهة الشقة مترقبة.. وإلى جوارها طفلة صغيرة تتطلع إليه فى صمت، فتوقف الطفل ذاهلاً ونظر إلى السيدة بعين مستفهمة.. ولاحظ فى دهشته وارتباكه أن الشقة قد طليت بلون جديد، وأن هناك ستائر جديدة على النوافذ.. وأخرجه من صمته صوت السيدة الغريبة وهى تقول له فى رفق:

أهلا وليد.. لقد كنت مشتاقة كثيرًا لرؤيتك.. وقد وجدتك أجمل مما توقعت!

ثم جذبته إليها وضمته وقبّلته فاستسلم لها وهو لا يدرى هل يسعد باهتمامها به.. أم يحزن لأنها لم تكن "المفاجأة" التى توقعها؟، وأمسكت السيدة بيده وأشارت إلى الطفلة الواقفة إلى جوارها وقالت له:

هذه رانيا.. أختك الجديدة!

فتطلع إلى أبيه كأنها يستنجد به لتفسير كل هذه الغرائب، فلم يدعه الأب طويلاً لحيرته، وقال له وهو يختار كلماته بعناية:

وليد.. لن تشكو شيئًا بعد الآن.. فقد أصبحت لك "ماما" جديدة تحبك وستهتم بشئونك.. وأصبحت لك أخت جديدة ستلعب معك وتسليك.. وستنام معك فى نفس الغرفة فى سرير جديد حتى لا تخاف أثناء الليل.. أليس هذا ما كنت تتمناه؟

وهمّ الطفل بأن يقول له ما كان "يتمناه" حقًا.. لكن شيئًا غامضًا منعه من التصريح به فسكت.

وتبادل الأب مع السيدة بعض النظرات المعبرة.. فحملت الحقيبة التى جاء بها الأب، وأمسكت بيد وليد وقالت له فى مرح:

تعال معى لترتب ملابسك وقادته إلى غرفته.. فلاحظ حين دخلها أن التغير قد شملها أيضًا، فأضيف إليها سرير جديد ودولاب صغير، وراحت السيدة تخرج ملابسه من الحقيبة وترتبها فى دولابه والطفلة الصغيرة تراقب الموقف صامتة.. ووليد ينظر إلى أبيه فيشجعه بابتسامته ونظراته.

وانتهت المهمة فقالت السيدة:

سأدعكما الآن تلعبان معا بعض الوقت حتى أعد لكما طعام العشاء، ثم خرجت مع الأب، ووجد وليد الطفلة مازالت واقفة قرب الباب تنظر إليه فى ترقب وخوف، فعزف عنها دون كلمة، وبحث عن ألعابه وأخرج منها علبة المكعبات الكبيرة وجلس على الأرض وراح يلعب بها ساهِـمًا.

وبعد دقائق رفع رأسه فوجد الطفلة مازالت فى موقفها ترقبه.. وخُيِّل إليه أنها خائفة، فعاد إلى ألعابه صامتا.. وبعد دقائق أخرى رفع رأسه إليها فوجدها فى مكانها تتطلع إليه فى صمت.. وأمل.. فأشار لها بيده أن تأتى فاقتربت منه على الفور، كأنما كانت تنتظر هذه الإشارة، فأشار لها مرة أخرى أن تجلس، فجلست طائعة وأعطاها بعض المكعبات فتناولتها بترحيب وراحت تساعده فى بناء السور الذى يبنيه، ووقع أحد المكعبات بعيدًا عن مجلسه، فأشار إليها فنهضت على الفور

وأحضرته له، فرقّ قلبه لها بعض الشىء وسألها وهو منهمك فى تركيب قطع المكعبات:

من هذه السيدة التى كانت معك؟

فأجابته: ماما.

وعاد للعب للحظات ثم سألها مرة أخرى:

هل ستجلسان هنا فترة طويلة؟

فأجابته: ماما تقول إننا سنجلس على طول!

فكاد يستسلم للغضب احتجاجًا على هذه النية، لكنه عدل عنه وسألها:

ولماذا لا تجلسان فى بيتكما مع بابا؟

فأجابته الطفلة ببراءة:

بابا "سافر" من زمان.. وشقتنا مظلمة وخالية!

فتساءل متعجبًا لهذه "المصادفة":

أنت أيضًا "باباك" مسافر؟

وهزت الطفلة رأسها مؤكدة.. فنظر إليها طويلاً.. وأحس للمرة الأولى منذ رآها بأنه يمكن أن يقضى معها بعض الأوقات السعيدة،

وأن يشتركا معا من حين لآخر فى اللعب وفى مقاومة الخوف من الظلام أثناء الليل، ورآها صغيرة خائفة.. وملبية وتترقب إشاراته لتنفذها بلا اعتراض.. فاستقر رأيه على ألا يطردها من غرفته كما فكر فى ذلك منذ دقائق، وقرر أن يسمح لها باللعب معه كلما رأى ذلك مناسبًا ولكن بغير أن تستولى على أية لعبة من ألعابه، وانهمك فى بناء السور، وهى تساعده كلما طلب منها ذلك وتستجيب فى استسلام غريب لأوامره، فتساءل بينه وبين نفسه متحيرًا:

لماذا "يسافر" بعض الآباء والأمهات بعيدًا ويتركون أطفالاً حائرين وخائفين.. مثل هذه الطفلة الصغيرة.. ومثله؟

وصل القطار فى موعده فى الثالثة من بعد ظهر الخميس فغادره الضابط الوسيم الشاب وسعى بين الزحام حتى غادر المحطة.. وقف ينتظر سيارة أجرة فطال الوقت دون أن يلُوح له أمل فاتجه إلى محطة الميكروباص وركب إحدى سياراته، فى الرابعة كان يدق جرس شقة الأسرة فى المنيل دقته المتقطعة المعروفة عنه، فانفتح الباب عن وجه أمه المبتهج وتلقته بالأحضان والقبلات، ومن خلفها جاء أبوه فاتـحًا ذراعيه، 15 يومًا كاملة يغيبها عن أبويه فى عمله البعيد عن القاهرة، فيخلو عليهما المسكن بعد زواج شقيقته وهجرتها مع زوجها، ويخلصان للوحدة فلا يؤنسهما فى وحدتهما سوى أخبار وحيدتهما المهاجرة وابنهما الغائب واجترار ذكريات رحلة العمل، الأب موظف كبير بالمعاش منذ عامين والأم مدرسة اعتزلت المهنة بعد تقاعد الأب لتخفف عنه وحدته، يمضيان معا معظم أوقات النهار والليل ويذهبان إلى النادى القريب فى الضحى ويعودان وقت الغداء؛ فيقضيان المساء أمام التليفزيون.

تتغير رتابة الحياة عندهما حين يرن التليفون رنينه الطويل حامـلاً صـوت "أمـانى" الملهوف دائمًا بالشوق إلى أبويهـا من

مهجرها فى كندا، يطمئنان على أخبارها ويسعدان بكل نجاح يحققه زوجها ويترقبان موعد عودتهما فى الأجازة مرة كل عامين كما يترقب المرء الأعياد.

أما "هشام" الابن الذى يعيش على بعد مائة كيلو متر فقط من القاهرة فلا يحمل التليفون صوته من مقر وحدته العسكرية إلا نادرًا.. ويعتذر عن ذلك كل مرة بأنه يدّخر الشوق والكلام كله إلى حين مجيئه إليهما كل أسبوعين، قلوب الأبناء تختلف فى ضعفها عن قلوب الآباء والأمهات.. وقد عرفا ذلك فيئسا من حثه على الاتصال بهما كل حين.

مائدة الغداء يوم الخميس حين يعود هشام هى بهجة الأسرة حقًا ومتعتها، تستعد لها أمه من اليوم السابق، ويشترى لها الأب أحسن الطعام والفاكهة، أما "التورتة" فيحملها معه هشام ويصر على أن يأكل الأبوان منها حتى التخمة، حديث المائدة يدور دائمًا حول أحداث الأسبوعين الماضيين فى حياة الابن.. وحكاياته لذيذة تثير ضحك الأم والأب من القلب.

لكن هشام يتعجل إنهاء الجلسة كل مرة وينهض متسرعًا رغم احتجاج الأم فيغتسل ويغير ملابسه.. ويواجه حرج الاستئذان فى الخروج قبل أن يرتوى شوق الأم إليه.

قالت له عاتبة:

ألا تصبر قليلاً على لقاء "الهانم" حتى تشبع من طعام الغداء.. وتستريح من السفر؟

فنظر إليها باسما ومحرجا.. وأنقذه أبوه من حرجه قائلاً له:

اذهب يا هشام.. وبلغ تحياتى للأستاذ حسنى ولا تتوقف أمام كلام أمك، فلو استطاعت لأبقتك إلى جوارها ولما سمحت لك بزيارة خطيبتك ولا بالعودة لعملك مساء غد.. فقبّل الشاب أمه وودّع أباه وخرج.

فى بيت فتاته.. وجد خطيبته فى انتظاره فى كامل زينتها فجلس مع أهلها بضع دقائق ثم استأذن فى الخروج معها.

راحة القلب تبدأ حقًا حين يخرجان من باب العمارة فتتشابك أذرعهما، ويمضى الوقت جميلاً سعيدًا بلا حساب.. عرفها وهو طالب بالسنة النهائية بالكلية الحربية.. وهى طالبة بكلية التربية البدنية، وتم تعارفهما فى محل للحلوى والجاتوه بوسط المدينة. جمعت بينهما المصادفة وتعاهدا على الارتباط، تخرج فى كليته وعمل خارج القاهرة.. وتخرجت بعده وعملت مدرسة، وتوجا الحب بالخطبة والاستعداد للزواج.. قالت له أمه حين أراد خطبتها معترضة:

ليست جميلة.. بالمرة وأنت وسيم وألف فتاة جميلة ترحب بك،

فلماذا تحكم على نفسك بعشرة فتاة غير جميلة قد تملها بعد أن يهدأ الحب.. وتتلفت حولك باحثًا عما ينقصك؟

فغضب لإهانة الحب ودافع عن فتاته بكل قواه.

أما أبوه فقد قال: الجمال مسألة شخصية تخصه.. ولا شأن لنا بها.. المهم أن تسعده وأن تكون من أسرة طيبة.. وكم من فتاة جميلة شقى بها زوجها، وكم من فتاة غير جميلة سعد بها زوجها.

ثم جاءت تحرياته عن أهلها مؤكدة جدارتهم بالمصاهرة فمنحه تأييده بلا تحفظ، وتمت الخطبة وتنازلت الأم عن معارضتها الواهية إكرامًا لابنها ورحبت بخطبته.. بل واستراحت بعد قليل إلى طيبتها وروحها الودود الوادعة.. مع ذلك فكثيرًا ما تعجبت للهفته عليها رغم ما تراه من افتقارها للجمال!

غادر الخطيبان سيارة الأجرة فى وسط المدينة.. فاتجها إلى محل الجاتوه والحلوى الذى تعرفا فيه للمرة الأولى، وتناولا واقفين بعض قطع الجاتوه وهما يتضاحكان، برنامج الحب كل أسبوعين يبدأ عندهما دائمًا بهذا المحل الذى جمع بينهما على غير انتظار. غادراه فسارا فى شارع سليمان ببطء وهما يتهامسان وتواصل حديثهما بلا انقطاع. توقفا أمام دار سينما مترو واستعرضا صور الفيلم المعلقة على جدرانها.. وتشاورا هل يمضيان الأمسية فى دار السينما.. أم يتجولان بلا هدف

حتى نهايتها وقررا دخول السينما، لا يختلف الأمر عندهما كثيرًا ففى داخل دار العرض سوف يتواصل همسهما وضحكهما الخافت إلى ما لا نهاية، وقد يخرجان منها دون أن يعيا شيئًا كثيرًا من أحداث الفيلم، فكل شىء جميل فى صحبة من تحب وحتى أفلام الكارتون التى تسبق عرض الفيلم تلقى لديهما صدى أكثر بهجة من صداها لدى الأطفال.

انتهى عرض الفيلم وغادرا السينما.. فتمشيا حتى كوبرى قصر النيل ثم ركبا سيارة أجرة فأعادها إلى بيتها وعاد سعيدًا منتشيًا إلى بيته.

سيمضى معها كالعادة ظهر يوم الجمعة ويتناول الغداء على مائدة أسرتها وستخرج معه إلى محطة القطار.. وتجلس معه فى بوفيه المحطة يشربان الشاى، ثم تودعه على رصيف القطار حتى يغيب عن الأنظار.

الحب شىء ثمين يستحق العناء من أجله، فلا بأس إذن بأن يتحمل انتقاد أمه وشكواها الدائمة من أنه يقضى من أجازته مع "الهانم" أكثر مما يقضيه مع أبويه، ولا بأس أيضًا بأن يتحمل راضيًا سخريتها الخفيفة وتساؤلها الدائم عن سر "السحر" الذى سحرته به هذه الفتاة ليظل ملهوفًا عليها هكذا.

الحب سحر فى حد ذاته يا أمى.. وليس فى حاجة إلى جهد دجَّال، أما "الجمال" الذى تلمِّحين إليه كلما تساءلت هذا التساؤل، فليس لى

من جواب عليه سوى أنى أراها أجمل الجميلات.. وإن لم تصدقينى فخذى عينى وانظرى إليها بهما!

استراح لأفكاره ففتح الباب ودخل إلى مسكنه؛ فوجد أبويه جالسين فى الصالة فى مجلسهما المعهود أمام التليفزيون، وتلقى نظرة أمه العاتبة وعبارتها الموحية "حمدًا لله على السلامة" باسما، ثم دخل إلى غرفته ليغير ملابسه.. قال لنفسه وهو يخلع قميصه، أمى طيبة وتحبنى.. وهى نفسها مثال "للحب" الذى تتعجب منه، لكن حب الأم لأبنائها قد ينسيها أحيانًا بعض حقوقهم فى الحب.. ويثير حبهم للأخريات غيرتها الغريزية! كل تصرفاتها تنطق بحبها لأبى.. وكل تصرفات أبى تؤكد نفس الشىء.. حتى أنا لم أفهم مغزى مبادرتها بطلب التقاعد من عملها حين أحيل أبى للمعاش إلا حين شرحته لى فتاتى، وقالت لى إنه أكبر دليل على الحب العميق.. وجلستهما الآمنة أمام التليفزيون كل مساء التى يظللها دائمًا العطف والفهم مثال آخر للحب، و"أمانى" لم تتزوج إلا ممن أحبَّت، وحين اعترض أبى على خطبتها لمن تزوجته بسبب اعتزامه الهجرة قالت له أمامى:

إنها تحبه وسوف تهنأ معه فى أى مكان يعيش فيه، فلا تقف فى طريقها.

ومازالت بأبى حتى تنازل عن معارضته.. فلماذا إذن تنكر علىَّ الحب؟

طالت غيبته بعض الشىء فى غرفته فقالت الأم لزوجها:

- لم يسترح من عناء السفر.. وأنهكته "الهانم" بالخروج والنزهة وليتها كانت جميلة بعد كل هذا العناء.. لكنه أعمى!

فداعب الأب مسبحته وقال لها مصطنعا الجدية:

"العمى" مرض وراثى فى أسرتى.. ألا ترين أننى أحببتك حين خطبتك.. وظللت على حبى لك حتى الآن.. رغم أنك لم تكونى جميلة؟

فلم تتمالك نفسها من الضحك والابتهاج لكلماته وقالت له راضية:

سأتجاوز عن "طول اللسان" مقابل الكلام الحلو الذى سبقه.. ربنا يكرمك!

فربّت على يدها مشجعا، لم تكن جميلة؟ لقد كانت أجمل الجميلات.. ومازالت رغم تجاوزها الخمسين بعامين متعة بصرى.. واطمئنان قلبى.. ورفيق عمرى.. اختلطت خيوطى بخيوطها فجدلت حبلاً واحدًا يصعب فصمه، ووقفت إلى جوارى فى كفاح الشباب وفى كل محن حياتى.. وواستنى فى أحزانى.. وسعدت بأفراحى.. وتوّجت كل ذلك بطلبها التقاعد مختارة، حتى لا تدعنى

للوحدة والفراغ حين أُحلت للمعاش لم أطلب منها ذلك بل وعارضتها فيه، لكنها غلبتنى بحكمتها وقالت لى:

عملت بما فيه الكفاية ومعاشى ومعاشك يكفلان لنا حياة كريمة.. وابنانا تخرجا وعملا.. وآن لنا أن نستمتع بصحبتنا وحياتنا معا التى شغلتنا عنها الشواغل والأعباء، كما أننى لن أسعد إذا تركتك وحيدًا فى الشقة فى الصباح..

فرفعت يدى مسلِّمًا بحجتها.. وأضفت صنيعها إلى رصيدها الكبير عندى.

عاد الابن إلى الصالة.. فنهضت الأم لإحضار بضعة سندوتشات خفيفة مع الشاى.. وتناولوا طعامهم هانئين.. وهم يتسامرون ويتنقلون بين السمر وبين مشاهدة تمثيلية السهرة فى التليفزيون.. ومضى الوقت رخيًا طيبًا حتى قطعت الأم مشاهدتها التليفزيون بسؤال ابنها فجأة:

برضه.. لن تتناول طعام الغداء معنا غدًا؟

فاحمر وجه ابنها الشاب ولم يجد ما يقوله، وأشفق عليه الأب فنظر إلى زوجته من خلف ظهر ابنه محذرًا ومنبها، وأدركت الأم ما أثارته من حرج فى نفس ابنها وارتبكت قليلاً ثم قالت كأنها تجيب على نظرة زوجها:

ربنا يعمل ما فيه الخير!

ونهضت إلى غرفة نومها، فالتفت الأب إلى ابنه وقال له:

أمك ذهبت للنوم.. فاحك لى يا بطل ماذا فعلت الليلة مع خطيبتك؟

وتورَّد وجه الشاب بالبشر وراح يحكى لأبيه وهو صديقه الحميم تفاصيل لقائه بخطيبته وما دار بينهما من حديث.. حتى حديث الحب.. والأب يسمع باهتمام وتشجيع إلى أن سمعا صوت الأم من غرفة نومها ينادى الأب:

حسين.. ألن تأتى للنوم بعد؟

فنهض الأب متثاقلا وهو يقول لابنه الشاب باسما:

"الهانم" تنادينى من الداخل.. عن إذنك!

فضحك الابن من قلبه وتبادل مع أبيه تحية المساء.

ثم راقبه وهو يتجه بجسمه الطويل الذى لم يوهنه السن وإنما بدا فى مرحلة الشيخوخة أكثر مهابة وجلالا.. ونظر إليه طويلا وهو يغيب خلف باب غرفة النوم نظرة ملؤها الحب.. والإعجاب.. والاحترام!

كالخيط الفاصل بين عالمين يقع هذا المزلقان الذى يهبط حاجزه المتحرك فى مواعيد محددة ليمنع عبور المشاة والسيارات عند مرور القطار، فعلى الناحية اليمنى منه بيوت صغيرة ومبانٍ عشوائية فقيرة وشوارع متربة، وعلى الناحية اليسرى شوارع لامعة وعمارات حديثة ومحلات باهرة الديكور والأضواء. كانت الناحيتان منذ سنوات قريبة حيًا واحدًا يشترك فى كل السمات فزحف العمران على الناحية اليسرى، وأزيلت البيوت الصغيرة، وأقيمت العمارات الشاهقة ورصفت الشوارع وانتقل إليها سكان جدد.. وبقيت الناحية اليمنى على حالها يسكنها البسطاء.. وتتعثر فى المشاكل.

وكان هو من سكان الناحية اليمنى، شابًا مكافحًا أنهى تعليمه فوق المتوسط بمشقة والتحق بوظيفة حكومية.. وتزوج من فتاة بسيطة طيبة وطاف بأحياء المدينة باحثًا عن سكن رخيص فلم يجده إلا فى هذه الناحية الفقيرة.

عاش مع زوجته حياة هادئة، يعبر كل يوم على قدميه المزلقان الفاصل ليركب أتوبيس الهيئة الحكومية الذى يمر بالجزء اللامع من الحى، ويعود فى المساء، فيعبره مرة أخرى إلى بيته وزوجته وابنتيه.. سنوات وراء سنوات وهو يعبر هذا

المزلقان دون أن يخطر له أن يفكر يومًا فيها يمثله من حواجز وفواصل بين عالمين كانا قبل سنوات عالـمًا واحدًا. ثم رحلت زوجته الطيبة عن الحياة فجأة، وهو فى الأربعين من عمره، فانطوى على أحزانه واحتضن ابنتيه يفرغ فيهما حنانه وواصل طريقه فى الحياة متصبرًا.

مضت خمس سنوات كاملة على وحدته اقتربت خلالها بنتاه من سن الشباب، فتضاعف إحساسه فافتقاد زوجته ودورها الهام فى رعاية ابنتيه فى هذه السن الحرجة. فتساءل متحيرًا.. أين المعين؟ الكبرى منهما صورة شديدة الشبه بأمها فى ملامحها وتفكيرها العملى وحسن إدارتها لشئون البيت، والصغرى صورة أخرى منها فى حنانها وعاطفتها الدافقة تجاه الجميع فكأنها تقاسمتا مزايا الأم الراحلة وجددتا أحزانه بفقدها.

علَّمته أيام الوحدة الكثير مما كان يجهله.. فعرف الكثير من شئون الفتاتين وشئون البيت، وتعجب كيف كانت زوجته الوديعة تدبر حياتهم بدخله المحدود بلا شكوى ولا اعتراض. وفى خجل وتحفظ بدأ يسأل زميلاته فى العمل عما ينبغى له أن يفعله مع ابنتيه ليحميهما من ألاعيب الذئاب. وتوالت عليه النصائح المخلصة، اقترب من ابنتيك أكثر.. شجعهما على ألا تخفيا عنك سرًا ولو كان مخجلاً.. وأن تستشيراك فى كل شىء حتى فى شئون القلب لكيلا تتخبطا فى بحر الحيرة بلا دليل.

ومتسلحًا بهذه النصائح الغالية حاول جاهدًا أن يقوم بدور الأم الغائبة فى حياة ابنتيه، لكن هيهات أن يطمئن قلبه الحزين إلى نجاحه.

وذهب إلى العمل ذات يوم فوجد فى الإدارة وجهًا جديدًا لسيدة فى أواخر الثلاثينيات من عمرها مريحة الجمال وترتدى فستانًا قاتم اللون. وقدموه لها فعرف أنها زميلة جديدة نقلت إلى إدارتهم منذ قليل، فتصافحا باحترام ثم انشغل كل منهما بعمله، لم يتذكرها بعد ذلك إلا حين انصرف من الإدارة إلى موقف أتوبيس الهيئة، ورآها تركب سيارة حديثة تقودها. فى الطريق استرجع صورتها.. ومسحة الأسى الخفيفة فى وجهها وربط فى خياله بينها وبين لون فستانها القاتم فقدر أنها أرملة مهمومة بشئون أبنائها بعد رحيل الأب وقال لنفسه:

ما أكثر المهمومين فى هذه الحياة.

أفاق من أفكاره حين رأى سيارتها من نافذة الأتوبيس تمضى فى نفس الطريق.. وتابعها بعينيه لفترة.. ففوجىء بها تدخل نفس الحى الذى يقيم فيه على الناحية اليسرى منه.

بعد أيام رآها تتحدث عن متاعب قيادة السيارة فى زحام المدينة وقت الظهيرة، وتسأل عن كيفية الاشتراك فى أتوبيس الهيئة، فنهض من وراء مكتبه فى أدب واصطحبها إلى الإدارة المختصة وجامله

زملاؤه فيها بإنـهاء الإجراءات فى ثوان.. فشكرته بحرارة. وفى اليوم التالى توقف الأتوبيس فى الصباح عند نقطة جديدة فى الـجزء اللامع من الـحى.. وصعدت الزميلة الـجديدة واتـجهت بتلقائية إلى الـمقعد الـخالى بجواره. تكررت اللقاءات فى رحلة الذهاب ورحلة العودة.. وأحس بعد فترة بارتياحها إلى صحبته فتجرأ واستشارها فى شأن محير من شئون ابنته الكبرى فاستمعت له باهتمام وأخلصت له المشورة.

ويومًا احتاجت هى إلى خبرته فى شأن يتعلق بمدرسة ابنها فلم يكتف بالمشورة، وإنما حمل أوراق الابن وتوجه للإدارة التعليمية، وأنهى مهمته على ما يرام واستحق شكرها العميق.. تواصلت الأحاديث بينهما ففهم سر ألوانها القاتمة فى ملابسها، وفهمت سر ربطة العنق القاتـمة التى يرتديـها دائمًـا. وعرف أنـها أرملة طبيب توفى تاركًا لـها ولدا وبنتا أكبرهـما فى الثانية عشرة، وأنها تواجه مشاكل دائمة مع أسرة زوجها بشأن ميراث الأبناء وتدخلات الأهل فى حياتـها بعد رحيل زوجها. وجمعت بينهما الـهموم المشتركة.. فاعترف لنفسه بأنه قد أصبح بعد ظهورها فى حياته أكثر إقبالاً على الحياة وأكثر تـحملاً لمتاعب الوحدة. وفى لـحظة ضعف حكى لابنتيه عنها، فتشوقتا لرؤيتها وتردد طويلاً قبل أن يفاتـحها برغبة ابنتيه، لكنها

رحبت بلقائهما ودعت الـجميع إلى فنجان شاى أصيل يوم الـجمعة فى النادى القريب.

فى الموعد الـمحدد توجه الثلاثة إلى النادى ففوجىء بابنتيه تندفعان إلى عناقها كأنهما تعرفانها منذ زمن طويل، وجاش صدره بالانفعال والتأثر وهو يرى حرارة ترحيبها بهما وتآلفها السريع معهما. أما ابنها وابنتها فلقد صافحا الجميع بأدب وتحفظ وانصرفا إلى ملاعبهما. انفتحت له بعد اللقاء قناة جديدة للاتصال بها، فقد تبادلت الفتاتان معها رقم التليفون.. وبدأت الاتصالات بينهن، وأصبحت الأرملة الشابة حديثًا مألوفًا فى بيته.

بعد أيام دعتها الفتاتان إلى الغداء يوم الجمعة.. فتحرج من مسكنه المتواضع وبيته القديم والحى الشعبى الفقير، وتساءل مهمومًا إلى أى حد سوف يؤثر واقعه البسيط على نظرتها إليه.. لكنها لبَّت الدعوة وأمضت الوقت بينهم مبتهجة وإن كانت قد جاءت وحيدة بغير ابنيها، وبعد أسبوع ردت لهما الدعوة فذهبوا إلى بيتها فى الجانب الآخر من الحى، ولاحظ هو بإشفاقٍ خفىٍّ العمارة الحديثة التى تقيم فيها.. والشقة الفاخرة والأثاث الباهر، واستشعر بُعد "المسافة" بينهما رغم قرب مسكنهما! ويومًا سألته ابنته الكبرى.. لماذا لا تتزوج من "طنط" مديحة يا أبى وهى سيدة لطيفة وجميلة وتحبنا!

فخفق قلبه للسؤال البرىء وكتم آلامه فى صدره، وهمّ فى اليوم التالى أن يصارح زميلته بمشاعره ورغبته فى الارتباط بـها.. لكنها بادرته بالحديث عن مشكلة جديدة ظهرت فى حياتها هى رغبة أهل زوجها فى أن تبيع شقة المصيف الغالية فى المعمورة، ليضاف ثمنها إلى رصيد ولديها فى البنوك واعتراضها على مبدأ البيع ورغبتها فى الاحتفاظ بالشقة فماتت جرأته فى مهدها.. وشاركها الحديث بذهن غائب.

ليست من عالمى.. ولست من عالمها.. وما هى رغم طيبتها وتواضعها إلا من السيدات اللاتى يعملن لشغل الفراغ وقتل الملل.. فلماذا يتعلق القلب بالأمل الصعب فيها؟ لكن نداء القلب قاهر.. فما إن روت له بعد أيام، وهو يوصلها إلى بيتها سيرا على الأقدام، أن متاعبها مع أسرة زوجها ليست هى كل المتاعب، وأن أسرتها تلح عليها فى قبول زوج مرموق كان زميلا لزوجها الراحل ولديه من الإمكانيات ما يساعدها على ضمان أفضل مستقبل لابنيها.. حتى انفلتت من عينه دمعة صامتة.. وأطرق برأسه خجلاً.. فكفّت عن الحديث متحرجة وانصرف صامتًا.

وفى اليوم التالى بادرته هى بالحديث فأكدت له احترامها له وميلها إليه.. وارتياحها لصحبته.. لكنها لا تستطيع تحمل المشاكل التى

ستواجهها من جانب أهل زوجها، إذا هى استسلمت لمشاعرها ووافقت على الارتباط به وأكثرها توقعًا انتزاع ولديها منها.. أو حرمانها من الوصاية عليهما، لهذا فلا حل لمشكلتهما الآن إلا أن يدعاها للزمن!

وتقبل الأمر الواقع صاغرًا.. لكن مرور الأيام يزيد من احتياجه إليها وتليفون المساء لم يعد قادرًا وحده على تلبية كل احتياجاته العاطفية والنفسية منها.. ولم يطق صبرًا فعاد يسألها بعد أسابيع:

هل تقبلين زوجا لا يملك إلا حبه لك ورغبته فى أن يسعدك ويسعد بك؟

فتجمعت سحب الهموم فى وجهها وأطرقت صامتة.

واعتبر صمتها رفضًا مهذبًا لحبه وآماله.. فانصرف حزينًا وعاقدًا العزم على أن يبتعد عنها، لكن تليفون المساء جاء فى موعده.. فنسف إرادته وعاد يتعلق من جديد بالأمل فيها. ويومًا أثبتت له صدق مخاوفها فاستجابت لرغبته فى أن يتقدم لأبيها بطلبه وحددت له موعدًا معه.. وذهب إليه فى بيته ووجدها عنده فتشجع بوجودها، وصارحه برغبته فقابله الأب بأسئلة هجومية محرجة عن أملاكه وإيراده ودخله السنوى ومسكنه والحى الذى يقيم فيه وسيارته... إلخ.. فتصبب عرقًا وهو يجيبه بأنه لا يملك سوى مرتبه، ولم يرحمه الأب وإنما طلب منه بقسوة عجيبة أن يطرد هذه الفكرة نهائيًا من ذهنه، لأنه لا يصلح

لابنته اجتماعيًا ولا ماديًا.. وقارن بلا حياء بين ظروفه وظروف "الآخر" المرموق الذى ترفضه ابنته.. وطلب منه أن يُحكِّم عقله وضميره لو كان فى مكانه، ويحدد له أيهما يقبله لابنته وأيهما يرفضه؟ ولم يخفف تدخلها بينهما فى الحديث ولا لومها لأبيها من وقع كلماته القاسية عليه فانصرف مستخزيًا!

قال لنفسه: مثيلاتها يتزوجن من يردن بغير اعتماد كبير على موافقة الأهل، فلماذا تقف هى عاجزة عن الإقدام؟.. وصارحها بأفكاره فصارحته بأنها لا تستطيع مواجهة متاعب أسرة زوجها بغير مساندة أسرتها لها، ولا تستطيع أن تفقد رضا الأسرتين معًا!

ويومًا اشتدت عليه آلامه، فبكى بين يديها واتهمها بأنها تعطى لهذه الاعتبارات المادية نفس الأهمية التى يعطيها لها الأهل.. ولو لم يكن الأمر كذلك لما ترددت أمام الزواج وقبول المتاعب، فأجابته فى حزن بأنه يطالبها بالكثير الذى لا تستطيع أن تقدمه!

وانتهى اللقاء العاصف فى سيارتها بأن طلب منها ألا تتصل به مرة أخرى وأن تتجنب الركوب فى أتوبيس الهيئة.. وأن تتجاهله فى العمل لكى تعينه على نسيانها وإخراجها من حياته ووافقته دامعة على ما يريد.

وفى اليوم التالى اعتكف فى بيته وأمضى اليوم عليلاً راقدًا فى فراشه.. حتى عادت ابنتاه من المدرسة.

وأرسـل إلـى عـمله يطلبب أجـازة ولازم البيـت لا يخرج منه ولا يستجيب لمحاولات ابنتيه للتسرية عنه.

وفى اليوم السابع جلس فى شرفة شقته الـمتواضعة يشرب القهوة.. ويتأمل شوارع الحى الـمتربة المزدحـمة بالباعة الـجائلين والبشر.. ويرنو إلى الجانب اللامع منه.. ويرقب عماراته العالية الزاهية بألوانها ويـحاول أن يحدد موقع بيتها بينها.. ويتخيلها فيه.. ويتصور ماذا تفعل فى هذه الساعة، ويستعيد مشاهد قصته معها منذ رآها للمرة الأولى.. فمال بعد تفكير طويل إلى ألا يظلمها ويـحمِّلها ما لا طاقة لها به.. والتمس لها بعض العذر فى ظروفه غير الـمواتية، وفى ظروفها المعقدة.. وحنَّ حنينا دافقا إلى صوتها العطوف.. وحديثها الصادق فرنَّ جرس التليفون فجأة بجواره ورفع السماعة وسمع صوتها الحبيب يتساءل فى حذر وخوف:

هل مازلت غاضبًا منى؟

فتنهد بارتياح شديد، وقال لها صادقًا وهو يرقب المزلقان الذى نزل حاجزه الأحمر وتعالى منه صوت جرس التحذير، ففصل بين جانبى الحى استعدادًا لمرور القطار الوشيك:

لا، لم أعد غاضبًا منك لحظة واحدة.. لكنى مازلت غاضبًا.. بل وشديد الغضب والألم.. من "المزلقان"!

انتهت من ارتداء ملابس الخروج.. ألقت نظرة أخيرة على وجهها فى المرآة ومسحت بأصبعها تحت جفنها كأنها تريد أن تزيل ما بدا لها بداية التجاعيد. اطمأنت إلى هيئتها وجمال وجهها الحالم دائمًا فأمسكت بحقيبة يدها وتوجهت نحو باب الشقة.. ركبت سيارتها الصغيرة وتحركت بها وهى تسأل نفسها كعادتها كل يوم:

إلى أين أذهب هذا الصباح؟

سؤال تسأله لنفسها كلما غادرت بيتها فى الصباح، فهى لا تعمل ولم تنجب، وليس فى حياتها سوى زوجها المشغول بعمله حتى الخامسة مساء. فى سنوات الزواج الأولى كانت تنهض متأخرة من النوم فتجد زوجها قد تناول إفطاره وغادر البيت، فتمضى فترة الصباح متكاسلة.. ترتب الشقة.. تسقى النباتات.. تتناول إفطارها أمام التليفزيون، تتسلى بمتابعة علاقات أبطال التمثيليات المسلسلة، وتتعاطف مع التعساء والمظلومين منهم. تنتظر زوجها فى المساء.. تتناول معه طعام العشاء، يستريحان بعض الوقت ثم ترتدى ملابسها ليخرجا معا إلى زيارة عائلية أو إلى السينما.. أو النادى. سلمت منذ وقت مبكر بالتنازل عن حلمها فى إنجاب طفلة تربيها

وتشاركها اهتماماتها.. أدركت استحالة تحقيق الحلم بعد جولة عصيبة داخل عيادات الأطباء ومعامل التحليل. نظر إليها زوجها خجلاً.. وأحنى رأسه وهو يعرض عليها الانفصال، لكى تبدأ حياة جديدة مع آخر ليس محكومًا عليه بالحرمان من الإنجاب، وبكت طويلاً واعتبرت عرضه انهزامًا للحب وتخليًا عنه. قال لها: ستطول وحدتك فى فترات غيابى فى العمل، فقالت له إنها تشغل نفسها بما يعزيها عن افتقاد الأطفال. تعلمت الرسم على الزجاج وتلقت دروسا فيه شغلت بها ساعات الصباح. تعلمت صناعة الأباجورات وصنعت عدة تحف منها زيَّنت بها بيتها. اهتمت بنباتات الظل.. وقرأت عنها كثيرًا لتعتنى بها. نثرت أصص النباتات والورود فى كل مكان من الشقة، زارت مشاتل النباتات فى أطراف المدينة وعرفها أصحابها فخصُّوها بأفضل ما عندهم. أدمنت مشاهدة التليفزيون والفيديو.. وسماع الموسيقى.. ترددت على النادى فى الصباح فى بعض الأحيان.

لكنها فقدت مع مرور السنين قدرتها على النوم حتى الضحى، وأصبحت تنهض من فراشها مع الفجر، فتؤدى صلاتها.. وتنشغل بعمل البيت وإعداد طعام اليوم، ويخيل إليها أن النهار قد انتصف، وتنظر إلى ساعتها فتجدها لا تزال تزحف نحو الثامنة صباحًا! تسأل نفسها ماذا أفعل بعد ذلك فى بقية النهار؟ زوجها ينهض من نومه فى

الثامنة.. تتناول معه الإفطار والقهوة ثم يخرج إلى عمله فى التاسعة.. فتسأل نفسها.. وماذا بعد؟

ترقُب من النافذة أطفال الجيران وهم يغادرون العمارة بملابس المدرسة الجميلة ومعهم أمهاتهم.. فتسرح أفكارها بعيدًا وتتخيل نفسها توقظ "طفلتها" من النوم فى الصباح، فترفض مغادرة الفراش لأنها لم تشبع بعد من النوم.. فتظل تلح عليها حتى تغادره كارهة وساخطة، تدفعها دفعًا إلى الحمام.. وتعد لها شطائر المدرسة "وترموس" الماء، وتعينها على ارتداء ملابسها، وتسرح لها شعرها فتسخط كل يوم، لأنها تصفف لها شعرها بعنف يضايقها.. ثم تسحبها من يدها وتنزل بها إلى الشارع وتقف على ناصيته مع الأمهات الأخريات حتى يجىء أتوبيس المدرسة، تتبادل معهن "الشكوى" من متاعب الأطفال واضطرارها للنزول كل يوم فى عز البرد لتصحب صغيرتها الشقية إلى أتوبيس المدرسة.. ترجع مع جاراتها وهن يتجاذبن أطراف الحديث، ويتبادلن طرائف أطفالهن إلى العمارة، وتمضى ساعات الصباح فى عمل البيت وهى تترقب موعد عودة الأتوبيس لتكون فى انتظاره فى نفس المكان، ثم تصطحب ابنتها إلى الحمام مباشرة رغم اعتراضها وصراخها طالبة الطعام. تغسل لها وجهها ويديها ثم تجلس معها على المائدة لتناول الغداء.

فات الأوان لتحقيق الأمنيات؛ ولـم يبق للنفس إلا عـزاء الأحلام فى دنيا الخيال. تتعجب من سخط جارتـها الدائم على أطفالـها وشكواها التى لا تنقطع من متاعب خدمتهم ومتابعة دروسهم وأمراضهم ونفقاتـهم ومطالبهم، وكيف تتحين الفرص لافتعال الـمشاجرات مع زوجها فتهجره إلى بيت أمها أسبوعًا أو أكثر ثم تعود. تلتقى بـها أحيـانًا على درج السلم وتسألـها عما أغضبها، فتعترف لـها ضاحكة فى بعض الأحيـان بأنـه لـم يكن هنـاك ما يستحق الغضب والـهجر، لكنها رأت فى ذلك أجـازة قصـيرة من متاعب الأولاد! تعْجب لأن يضـيق الإنسان أحيـانًا "بأسباب السعادة"، لـكن هكذا تـمضي الأمـور فى بعض الأحيان.

شكت لزوجها من ضيقها بساعات الصباح التى ينشغل عنها خلالها فى عمله، فأطرق حائرًا ولم يحر جوابًا. لا يقصر فى رعايتها والاهتمام بها لكن ماذا يفعل ليعوضها غيابه خلال ساعات العمل؟. إنه يعتذر عن مهام العمل خارج المدينة التى تبعده عنها، ما لم يتح له أن يصطحبها معه فيها. لو استطاع أن يمارس عملاً فى بيته يدر عليه ما يكفل له ولها حياة كريمة لما تردد. لكن عمله هو مورد رزقه الوحيد وساعاته الطويلة هى سر مرتبه الكبير. يغادر البيت فى التاسعة صباحًا ويعود فى الخامسة مساء ولا مفر من ذلك فماذا يفعل؟ عرض عليها أن تلتحق بأى وظيفة لشغل أوقات فراغها ففشلت فى الاستمرار فى أول

عمل مارسته أكثر من شهرين، ونفضت يدها منه يائسة من تجربة العمل نهائيًا. شجَّعها على الذهاب إلى النادى واشترى لها بكل مدخراته سيارة صغيرة بالتقسيط.. فترددت على النادى بضع مرات ثم زهدت فيه.

ثم فجأة أصبحت لا تطيق وحدتها بين جدران بيتها فى ساعات الصباح. سئمت مشاهدة التليفزيون ومسلسلات الصباح. ملَّت الرسم على الزجاج وصناعة الأباجورات. كرهت الموسيقى.. لم يبق لها من هواياتها القديمة سوى القراءة.. والسرحان الطويل.. وسقْى النباتات وتأملها لفترات طويلة.. يغادر زوجها البيت فترتدى ملابسها وتتأمل وجهها فى المرآة قليلاً ثم تركب سيارتها وتسأل نفسها: إلى أين؟ مشكلتها اليومية هى أن تجد "مهمة" تؤديها أو زيارة تقوم بها أو مكانا تزوره فيجدد اهتمامها بالحياة. تتردد كل يوم هل تزور أمها أم بيت شقيقها أم تذهب إلى المشتل؟

لابد من قرار قبل أن تتحرك السيارة فما القرار؟ يطول بها الانتظار وهى جالسة داخل السيارة فيأتيها المنادى يسألها:

هل كل شىء على ما يرام؟

فتجيبه بنعم ثم تدير سيارتها وتمشى بها على غير هدى.

الـهيئة الأجنبية التى يعمل بـها زوجها تعطى العاملين نصف ساعة فقط لتناول الغداء فى الثانية عشرة ظهرًا، فيتناولون الشطائـر فى مقصف الـهيئة، ذهبت إليه بضع مرات لتراه فى هذه الاستراحـة وتشرب معه القهوة، لكنها لـم تستطع مواصلة الزيارة، لأن مـدير زوجها لفت انتباهه إلى منع الزيارات خلال يـوم العمل.

قادت سيارتها ذات يوم إلى فندق كبير تطل شرفته على منظر جميل وجلست لتشرب القهوة وتتفرج على زحام الطريق، فاقترب منها رجل أنيق وابتسم، وقبل أن يهم بالكلام كانت قد تركت ثمن القهوة على المائدة وأسرعت بمغادرة المكان. تمنَّت لو كانت لها صديقة خالية من الأعباء تستطيع أن ترافقها فى جولات الصباح وتحتمى بوجودها معها، لكن كيف السبيل وكلهن موظفات أو أمهات مرهقات بأعباء الأطفال.

متاجر وسط المدينة هى هدفها فى أغلب الأيام. تتخير المتاجر الكبيرة التى لا يلاحق البائعون فيها المشترى بالسؤال عما يرغب فى شرائه ثم تدخلها؛ فتتجول بين أقسامها لفترات طويلة وقد تشترى شيئًا.. وقد تكتفى بالفرجة وقتل الوقت. فى أحد هذه المتاجر اصطدمت ذات يوم وهى غائبة الذهن بشخص وسيم وأحست بالخجل.. وهمت بالاعتذار له فبادرها هو بالاعتذار مبتسما. وقبل أن تتحرك منصرفة قال لها:

فى خدمتك يا هانم أنا مدير هذا المحل..

شكرته بحياء وهمت بالتحرك.

فقال لها مرة أخرى:

إذا أعجبك شيء لا ترددى فى الحضور إلى مكتبى فى نهاية هذه الصالة لأجرى لك خصما طيبًا على سعره. وهذه بطاقتى!

تناولتها محرجة وشكرته وانصرفت وعادت إلى سيارتها، نظرت إلى البطاقة بضع ثوان ثم ألقتها بإهمال فى "تابلوه" السيارة.

روتْ لزوجها فى المساء ما حدث، فضحك وطالبها بمزيد من الاحتراس ضد نوبات السرحان. بعد أسبوعين وجدت نفسها تدخل نفس المتجر الكبير، وتتجول فى أبهائه، ووقفت أمام مرآة ورف يصلحان لمدخل شقتها وراحت تتأملهما طويلاً، ففوجئت بصوت يأتى من خلفها قائلاً:

هل تعجبك هذه القطعة؟ إذا رغبت فيها سأقدم لك تسهيلات مغرية فى الدفع؟.

والتفتت فرأته وشكرته وتحركت لتنصرف فقال لها بأدب:

لم تسأليني عن التسهيلات. فابتسمت فى خجل فواصل الحديث كأنما يجيبها عن سؤالها:

سأقدم لك خصما 20٪ وأقبل بيعها لك بالتقسيط على عام.. فماذا ترين؟

فأجابته:

سأفكر فى الأمر وأتصل بك.

لكنه لم يدعها لنفسها فقال لها:

لماذا لا تتفضلين بالذهاب معى إلى مكتبى لأعرض عليك كل التسهيلات؟

وقبل أن تـجيب بالرفض أو القبول كان قد تـحرك فى اتـجاه مكتبه وهو يقول لـها:

تفضلى يا هانم.

ولم تجد مفرًا من أن تتبعه. وجاء الساعى على الفور بفنجان القهوة فأمسكت به، وهى تحس بنظرات الآخر ترقبها فى اهتمام. قال لها:

إنه يعرف من يترددون على متجره بكثرة وأنه رآها مرارًا داخله، وأحس بأنها تعانى من الفراغ وتقطع الوقت بزيارة المحال.. فإذا كان ما فهمه صحيحًا فلماذا لا تشغل وقتها بعمل مفيد؟

وسألته:

مثل ماذا؟

وأجابها بلا تردد:

كأن تعملى سكرتيرة لى. إننى أحتاج إلى سكرتيرة محترمة مثلك تنظم لى وقتى ومقابلاتى وأوراقى. وفشلت تجربتى مع الفتيات الصغيرات المشغولات بأنفسهن، ولن يرهقك العمل كثيرًا فهو من التاسعة صباحًا حتى الثالثة بعد الظهر، وفى فترات المساء يساعدنى سكرتير آخر. وسيكون المرتب مناسبًا.

ففكرت لحظات ثم وعدته بأن تفكر فى الأمرين معًا!

غادرت المتجر الكبير مشغولة البال بما عرضه عليها صاحبه أو مديره.. لماذا يعرض عليها العمل معه.. وهو لا يعرفها ولا تعرفه؟.. وماذا يريد منها؟ إنه رجل وسيم أنيق يجيد الكلام الحلو وابتسامته تسبق كلامه دائمًا. وهو متزوج بغير شك فهو فى الأربعين من عمره على الأقل.. ودبلة الزواج تلمع فى يدها، ولا يمكن أن تخفى على لماحيته.. فماذا يريد منها؟ اعتزمت ألا تعود إلى هذا المتجر مرة أخرى، وأن تتجنب زيارة المتاجر الملاصقة له حتى لا تصادفة فى طريقها إليها.. ومضى أسبوع لم تقترب فيه من المتجر. ثم ضاقت بفراغ الصباح مرة أخرى فركبت سيارتها إلى نفس الشارع التجارى ونزلت تتجول بين محاله.. وتنقلت من محل إلى آخر

ووقفت أمـام فاترينة أحد الـمحال القريبة تتأمل معروضاتـها.. ثم قررت دخوله لتسأل عن شيء عنَّ لـها، واتـجهت إلى البائعة وانشغلت بالـحديث معها لـحظات، ففوجئت بصوت يقول لـها مرحبًا:

ـ أية خدمة يا هانم؟

التفتت ناحية الصوت بطريقة تلقائية، فوجدته أمامها مرة أخرى بابتسامته العريضة.. ولم تخف دهشتها وحرجها.. وبادرها هو موجهًا حديثه للبائعة بلهجة آمرة:

اهتمى بطلب السيدة.. وقدمى لها خصما 25٪ على الثمن!

وأحنت البائعة رأسها مؤكـدة الاستجابة.. وبالغت فى احترام السيدة وإرضائها.

وانسحب هو من موقفها.. وابتعد قليلاً ووقف يتحدث مع شخص آخر، ورمقته البائعة عن بعد ثم همست لها وهى تعرض عليها معروضاتها:

هل تعرفين الأستاذ عصام؟

فأجابتها بأنـها لا تعرفه سوى معرفة عابرة من خلال زياراتـها للمحل الذى يديره.. وبعد تردد سألتها عن علاقته بـهذا الـمحل..

ففسرت لـها الأمر بأنه شريك فيـه وأنـه وشقيقه يملكان هـذين الـمحلين مع 3 شقيقات وينفـرد كل منهما بإدارة أحدهـما. وكأنمـا أحست البائعة بأنـها لا تعرف عنه الكثير فقالت لـها:

إنه مطلق منذ 3 سنوات، وقد انفصل عن زوجته التى أنجبت منها طفلين وتزوجت غيره وهو يبحث عن زوجة تحب الأطفال لترعى طفليه.. وختمت حديثها بهمسة لها مغزى قائلة لها إنها لاحظت "اهتمامه بها" على عكس حاله فى الظروف العادية!

تنبهت حواسها لما سمعت رغمًـا عنها وسألتها باهتمام بدا غريبًا للبائعة:

وأين يعيش الطفلان؟

فأجابتها بأنه قد استردهما من مطلقته عقب زواجها، ويعيشان فى رعاية أمه السيدة المسنة ويتردد عليهما من حين لآخر!

وغادرت المحل مضطربة المشاعر.

وبعد أسبوع زارت المتجر الأول فى الصباح. وتهلل المدير الوسيم لرؤيتها.. وأقبل عليها مرحبًا وهو يتساءل:

هل قبلت العمل معى؟

وأبهجتها فرحته بلقائها رغمًـا عنها، لكنها أجابته بالنفى وبأنها جاءت لشراء مرآة المدخل والرف.

ولم يفسد ذلك فرحته ودعاها إلى المكتب.. وطلب منها عنوان مسكنها لإرسال مشترياتها إليها بسيارة المتجر بعد الظهر، وحاول تقسيط الثمن لها فاعتذرت ودفعت الثمن كاملاً فجاملها بخصم كبير. وهـمَّت بالانصراف، فسألها أن تنتظر عودة الساعى بالإيصال ثم باغتها بالسؤال:

هل عندك أطفال؟

واهتزت مشاعرها رغمًا عنها واحمر وجهها خجلاً، وهى تجيبه بالنفى، ثم تعجلت النهوض فصحبها إلى موظفة الـخزينة.. وقدم لها الإيصال وودعها باحترام. وغادرت المتجر أكثر اضطرابًا مما دخلته. وبعد عودتها إلى بيتها بقليل جاءت سيارة المتجر وحملت إليها المرآة والرف.. وفازة أنيقة تكمل المجموعة. ورفضت تسلم الفازة لأنها لـم تطلبها، لكن العامل الذى حملها أصر على أنها مسجلة عنده فى أمر التوريد وطلب منها الاتصال بصاحب المتجر ومراجعته فى الأمر. وأدارت رقم تليفونه. وجاءها صوته راجيًا قبول الفازة كهدية من المتجر لعميلة محترمة من عميلاته.. وراجيًا ألا تحرجه أمام العامل بإعادتها.. اليوم على الأقل!

وسلمت بالأمر الواقع.. فشكرها "بحرارة" على محافظتها على كرامته أمام أحد عماله!

وبعد تفكير طويل قررت أن ترسم بعض اللوحاتِ الزجاجية وتقدمها له كمقابل للفازة التى أرسلها إليها، ورسمت لوحتين ثم حـملتهما إلى الـمتجر وأعطتهما لـموظفة الـخزينة راجية تسليمهما للأستاذ عصام، لكن الـموظفة أبت تسلم اللوحتين وأشارت لـها إلى مكتب الـمدير لتسلمهما إليه.

وتوجهت إليـه ففوجئت بطفلين يـجلسان معـه ويتناولان الآيس كـريم. نـهض مرحبًا بـها وأسرع يقـدم إليـها طفليه "بسنت" و"وسام"، وابتسمت لهما. وقلبها يـخفق بإحساس غريب وتأمل هو اللوحتين بإعجاب.. واشترك معه الطفـلان فى مشاهدتـهما وسألت "بسنت" أباهـا عمن رسمهما.. فـأشار إليها قائلاً:

إنها هى التى رسمتهما.. واشتبكت معها "بسنت" و"وسام" على الفور فى حديث عن الرسم.. وسألاها عن اسمها.. وكيف ترسم فوق الزجاج وقاطعهما أبوهما بسؤاله لبسنت:

هل تحبين أن ترسمى مثل طنط منى؟

وأجابته بالإيجاب.

فنظر إليها باسمًـا ثم قال لها:

ما رأيك فى هذا "العمل" المريح.. درس فى الرسم مرة كل أسبوع وسوف أرسلها لك مع أحد موظفى المحل!

ولـم تستطع أن تـرفض رجـاء الطفلة، ووعدتـها بـأن تعطيها درسها الأول يوم الأحد القادم. وانصرفت تاركة اللوحتـين ومؤكدة له أنـها لا تنتظر مقابلا لـهما.

وفى المساء روت لزوجها ما حدث فلم يسترح كثيرًا للقصة.. لكنه لم يعترض، وجاءتها "بسنت" فى موعدها مع أحد موظفى المحل صباح يوم الأحد التالى وهو أجازتها من المدرسة.. وسعدت بها سعادة طاغية وأمضت ساعات الصباح تتحدث معها وتجيب عن أسئلتها.. وتعلمها الرسم.. وسألها زوجها فى المساء بإشفاق عن نتائج التجربة، فأكدت له أنها استمتعت بساعات الصباح ذلك اليوم للمرة الأولى منذ سنوات عديدة.

وتكررت زيارات "بسنت".. ومن أحاديثها عرفت الكثير عن أبيها وعائلته وعرفت أيضًا أنه يستجوبها بعد عودتها ويسأل عن تفاصيل ما جرى بينهما من أحاديث.. ويسألها عن طنط منى كثيرًا.

وطلبت منها "بسنت" رقم تليفونها لتتصل بها من بيت جدتها، وأعطته لها وأصبحت تتصل بها كل يوم بعد عودتها من المدرسة.

وأصبحت "بسنت" حديثًا دائمًـا على لسان الزوجة الوحيدة مع زوجها. وشيئًا فشيئًا بدأ زوجها يعبر عن عدم ارتياحه لظهور "بسنت" فى حياة زوجته، ويسألها ولماذا لا توجه اهتمامها هذا إلى ابنة شقيقها أو ابنة شقيقته؟

واشتمت فى حديثه رائحة الشك.. فغضبت وتوترت أعصابها. ولم تفلح تأكيداته لها بأنه يثق فيها ثقة كاملة فى تخفيف توترها.

ولمس للمرة الأولى منذ زواجهما ابتعادها بأفكارها وخواطرها عنه.. فاكتأب لذلك، وأحس بأنها تبحر فى سفينة تتجه بعيدًا عن شاطئه.

وازدادت عصبيتها فى الأيام التالية.. وتحمل ثوراتها المفاجئة عليه واتهامها له بالأنانية وبأنه لا يحس بها وبما تعانى.

وسألته بحدة ذات يوم:

هل تغار من طفلة صغيرة؟

فأجابها حزينًا:

لا.. لكنى أغار ممن وراء هذه الطفلة الصغيرة!.. ومما يمكن استدراجك إليه عن طريقها.

واعتبرت إجابته جرحًا داميًا لكرامتها، فهجرت بيته وعادت للإقامة فى بيت أمها. واتصل بشقيقها يشرح له ما حدث.. ويسأله:

هل تريد الطلاق؟

فنصحه بالصبر عليها.. وبألا يستجيب لمطلبها حتى لو طلبت

الطلاق لأنها فى حالة عصبية لا تسمح لها بالتفكير المتزن.. ومضت أيام لم تتصل به.. ولم تعد إلى بيتها. واتصل ببيت أمها طالبًا الحديث معها.. فرحبت به طويلاً وكررت عليه نصيحة شقيقها بالصبر عليها حتى تجتاز هذه الفترة من حياتها ثم اعتذرت له فى النهاية بأنها "نائمة"!

وتكرر اتصاله بها.. واعتذار الأم عنها بشتى الاعتذارات حتى أيقن أن قصة حبه وزواجه قد آذنت بالمغيب.

ويوما عاد إلى بيته فى المساء، فأبلغه البواب أن هناك طفلة صغيرة قد جاءت فى الصباح ومعها شخص، وقالت له إن أحدًا لا يجيب جرس الباب فى مسكنه، وأن ذلك قد تكرر معها أيضًا قبل أسبوع. وابتهج باطنه بهذه الحقيقة التى أهداها له البواب بغير أن يدرى.. مازالت "بسنت" تأتى فى موعدها الأسبوعى وترن جرس الباب فلا يفتح لها أحد.. إذن فليس هناك اتصال بين زوجته و"بسنت" ومن هو وراءها!.. مازالت زوجته المخلصة التى يعرفها ويحبها.. ولو كانت غير ذلك لعرفت "بسنت" ومن وراءها أنها تقيم ببيت أمها منذ أسبوعين.. لشدَّ ما ظلمها.. إنها تحب الأطفال والبنات على وجه الخصوص.. ورأت فى "بسنت" ما يشبع حنينها القديم لطفلة تربيها، لكنها لم تخن الحب ولن تخونه.. نعم إنه لا يستريح إلى علاقتها بها

تخوفًا من المستقبل ومما قد يفكر فيه أبوها الذى جمع بينهما.. لكنه لا يستطيع أن يظلم زوجته.. فلتحب "بسنت" كما تريد.. ولتستقبلها صباح كل أحد.. وليكتم هو مشاعره إلى أن تهدأ مخاوفه.. أو تتغير الأحوال وييأس الآخر مما يهدف إليه.

وأسرع إلى بيت أمها.. ولم يتوقف عند محاولات الأم لتعطيله عن دخول غرفة نوم زوجته القديمة.. واندفع إليها منفعلاً يحتضنها وهو يلهث من الانفعال ويقول لها:

ـ "بسنت" جاءت مرتين للسؤال عنك.. فعودى إلى البيت لتكونى فى استقبالها الأسبوع القادم.. ولن أعترض.. ولن أتخوف لأنى أثق فى زوجتى وحبيبتى.

وعادت معه إلى بيتها.. وفى اليوم التالى عاد من عمله حاملاً معه باقة من الزهور ليضعها فى فازة المدخل.. فلم يجد الفازة فى مكانها وسألها عنها فأجابته بابتهاج:

بعتها لبائع الروبابيكيا! ولم يهتم بالاستفسار عن السبب.. وأسعده ابتهاجها وإقبالها عليه، وسألها عن يومها، وكيف أمضت ساعات الصباح فقالت له:

ذهبت إلى النادى وعلقت على لوحة الإعلانات فيه ورقة صغيرة مكتوبًا بها: دروس مجانية فى الرسم على الزجاج للفتيات الصغيرات

من سن 4 سنوات حتى 12 عامًا من العاشرة صباحًا حتى الثانية عشرة ظهرًا.. ومكان الدرس صالة الهوايات بالنادى! ثم قالت له:

سيكون لى أكثر من "بسنت" واحدة.. وستصبح ساعات الصباح فترة مثيرة وحافلة بالنشاط الممتع.

فرفع يدها إلى فمه ولثمها صامتًا.. ومدت هى يدها تداعب مؤخرة شعره وتقول لنفسها صامتة ومتفكرة:

ما تغزله السنوات من خيوط الحب المتشابكة يصعب على الأحداث الطارئة.. أن تفصمه!

غادر عيادة الطبيب مكتئبًا. مشى فى الطريق، يحمل المظروف الأبيض الذى يضم صور الأشعة والتحاليل ذاهلاً عما حوله. اصطدم بغير أن يشعر بشيخ يتوكأ على عصا، فكاد الشيخ يتداعى لولا أن أمسك به معتذرًا. أحسَّ أنه فى حاجة لأن يستعيد بعض هدوء أعصابه، فتوقف وتلفت حوله باحثًا عن مقهى قريب. دخل أول مقهى صادفه وهو غارق فى أفكاره، وجاء الجارسون فتحير ماذا يطلب منه. همَّ بحكم العادة أن يطلب فنجان القهوة التى يعشقها لكن وجه الطبيب الصارم قفز إلى مخيلته فتراجع.

تذكر نفس التحذيرات التى سمعها بصورة مخففة قليلاً من كوب الشاى وزجاجة المياه الغازية فلم يدر ماذا يطلب. تاقت نفسه لسيجارة مع فنجان القهوة.. فتمثلت الرغبة له وكأنها من أحلام الأيام السعيدة.. من الآن لا شىء من ذلك فوداعًا لكل لذائذ الحياة البريئة، أما اللذائذ المحرمة فقد تكفل إيمانه بحرمانه منها منذ زمن بعيد.. طال وقوف الجارسون أمامه فقال له وهو لا يكاد يعى ما حوله.

كوب من الماء من فضلك..

فاختفى الجارسون ليلبى الطلب متصورًا أنه سيأكل بعض الشطائر التى يحملها فى المظروف الأبيض قبل أن يطلب الشاى أو القهوة.

متى بدأت متاعبه الصحية؟ لم يعد يذكر بالضبط.. كل ما يذكره هو أنه قد لاحظ على نفسه أنه يعانى من بعض الدوار حين ينزل من سيارة الأجرة، وكلما غادر المصعد فى مبنى العمل، وأرجع ذلك إلى سرعة المصعد، لكنه لاحظ بعد ذلك أن نفس الدوار يفاجئه إذا نهض من مقعده فجأة أو أجهد نفسه فى العمل، فاتصل بطبيب صديق له وشكا له من متاعبه، فطلب منه زيارته فى المركز الطبى الذى يديره، وفى اليوم التالى استقبله الطبيب مرحبًا وفحصه بسماعته ثم طلب منه ارتداء ملابسه وعاد إلى مكتبه.. وأصلح هو من شأنه ثم جلس أمامه فقدم له الطبيب فنجان الشاى ودق الجرس فجاءت الممرضة وسألها:

أين الدكتورة منى؟

انصرفت منذ دقائق.

اتصلى بها واطلبى منها العودة للمركز.

ثم اتجه إليه وراح يحدثه فى شئون الحياة كما اعتادا أن يفعلا كلما التقيا، وحاول هو انتزاع نفسه من أفكاره ومجاراته الحديث بذهن غائب، وبعد دقائق عادت الممرضة لتبلغه بوصول الدكتورة منى،

فنهض وطلب منه مصاحبته، وغادر غرفة الفحص إلى غرفة أخرى قريبة، وقدمه للطبيبة الأخصائية فى الفحص بالموجات الصوتية فإذا بها زوجته، وتذكر هو فى هذه اللحظة أنه كثيرًا ما تـحدث معها تليفونيًا دون أن يلتقيا، وتـحدث الطبيب مع زوجته بالإنجليزية بضع عبارات مبهمة، لـم يستطع رغم معرفته للإنجليزية أن يحدد مدلولها ثم انصرف باسمًـا. وطلبت منه الطبيبة خلع ملابسه عن النصف الأعلى من جسمه والصعود فوق مائدة صغيرة.. فامتثل طائعًا وسُحب الاكتئاب تتكثف داخله. من خبرته بالحياة عرف أن صحيح الجسم لا يحتاج إلى فحص طويل، وأن المريض وحده هو الذى يطول فحصه، ويتطلب الأمر استدعاء أخصائية من بيتها للاشتراك فى فحصه. وجلست الطبيبة المتخصصة أمام جهاز الفحص وبدأت مهمتها.. ومضت فترة طويلة وهى مستغرقة فى عملها باهتمام، ومن حين لآخر تطلب منه أن يستدير لليسار أو لليمين وتغير من موضع جهاز الفحص على صدره، ثم انتهت أخيرًا من عملها وقالت له فى رقة: لا بأس ليس الأمر خطيرًا.. لكنه يتطلب بعض المتابعة الطبية!

هكـذا تكـون البـداية دائمًـا.. ليـس الأمر خطيرًا.. لكن لا تأكل ولا تشرب ولا تسهر.. ولا تعش.

فى بؤرة الدوامة دار حول نفسه لفترة طويلة تنقل خلالـها بين

عيادات الأخصائيين ومراكـز الأشعة والتحاليل. تضخم ملفه فى عيادة صديقه الطبيب حتى أصبح يـحتاج إلى حمال ليرفعه من مكانه. عاد إليه بعد الجولة الطويلة حاملاً معه النتائج النهائية، وجلس أمامه صامتًا ينتظر كلمة القضاء فيه.

تأمل صديقه الطبيب النتائج بملامح حيادية لا تنبئ عن شىء.. ثم نحَّاها جانبًا وعقد ذراعيه على المكتب وهو يقول له باهتمام:

لن أخدعك وأقول لك إنك سليم معافى.. لكنى أيضًا لا أريدك أن تجزع وتفسد حياتك بالخوف.. فالحق إنك لست سليمًـا.. لكنك أيضًا لا تعتبر حالة حرجة.. وهناك "شىء ما" فى حالتك يستدعى المتابعة الطبية مرة كل 6 شهور.. وخلال ذلك سوف تلتزم بالدواء التزامًا دقيقًا، وأريدك أن تتوقف على الفور عن التدخين وتناول القهـوة وألا تشـرب أكثـر من فنجانـين من الشـاى كـل يوم. أيضًا لا تمارس أى نوع من الرياضة سوى المشى لفترات قليلة.. وعش حياتك بعد ذلك باعتدال والتزم بطعام صحى، ولا ترهق نفسك بالعمل وتجنب الانفعال الحاد بكل الطرق، فلا تحزن لشىء حزنًا كبيرًا ولا تفرح لشىء فرحًا طاغيًا.. فكل أنواع الانفعالات السارة والمحزنة غير مطلوبة، وستكون النتائج طيبة بإذن الله. وسيتوقف على التزامك بهذه التعليمات إطالة الفترة التى تكتفى خلالها بالأدوية ولا نحتاج فيها إلى الجراحة.

سمع التعليمات صامتًا وصدره ينقبض تدريجيًا.. خاصة حين جاء ذكر الجراحة.. الشبح الذى يتراءى له فى أحلامه المزعجة منذ اكتشف حالته، شكره بقنوط وانصرف. لا قهوة ولا شاى ولا سيجارة.. ولا انفعالات ماذا يبقى له من الحياة بعد ذلك؟ وكيف يتحكم الإنسان فى انفعالاته، وكثير مما حوله يدعوه للانفعال.

عاد إليه الجارسون فأحس بالحرج وطلب فنجانًا من القهوة، وهو ينوى أن يبلل به شفتيه فيستشعر مذاق البن المحبب إليه ثم يدع الفنجان فى مكانه.

انصرف الجارسون ليلبى الطلب فعاد إلى نفسه.. وأفكاره. سيطوى صدره على أشجانه ولن يبوح بها لزوجته "سميحة" مهما كانت الأحوال. طبيعتها الانفعالية تمنعه من أن يشركها معه فى همه الجديد، أو يشير إليه معها. خوفها المتأصل فى أعماقها من المجهول يفرض عليه أن يحتفظ لنفسه بهواجسه ومخاوفه ويعانيها وحده.. فى أوقات السعادة وقبل أن تظهر سحب الهموم فى الأفق كانت تبكى فجأة.. ويسألها منزعجًا عما يبكها.. فتقول له بعد إلحاح:

تخيلت فجأة أنك تركتنى وحيدة مع ياسمين.. فأحسست أنى ضائعة.. فى الحياة!

كان صحيح الجسم، والحياة واعدة بكل الخير.. وكانت خائفة دائمًا من المستقبل.. فكيف يكون الحال إذا عرفت بأنه قد أصبح لديها ما تخشاه فى الواقع عليه؟

ظروفها أكسبتها هذه الطبيعة الحزينة التى تستجيب لدواعى الخوف بأكثر مما تستجيب لعوامل الأمان.. منذ عرفها وأحبها أخذ على عاتقه مسئولية إشعارها بالأمان كل يوم وتبديد مخاوفها وهواجسها.

نشأت وحيدة أبويها.. وانفصل أبوها عن أمها وهى صغيرة، فعانت مرارة الحرمان من حنان الأب ورعايته. وتزوجت أمها فتشردت بين بيوت أبيها المتزوج.. وجدتها.. وأمها.. لا تعرف الاستقرار فى مكان واحد لأكثر من شهور ثم تحمل حقيبتها وترحل إلى مأوى جديد.. وماتت أمها بغير أن تنجب من زوجها الجديد فبكتها طويلاً.. وبكت أكثر لأنها لم تمنحها أخًا تستند إلى كتفه فى رحلة الحياة. انقطعت صلتها بعد رحيلها بزوجها الأخير وأولاده، وبعد شهور من رحيل أمها توفيت جدتها فلم تخلع سواد الحداد وجفت منابع الدمع فى عينيها. فاجأها بعد شهور أخرى أبوها بطلاق زوجته الجديدة وعودته للحياة معها فى شقتها القديمة يائسًا من تكرار التجربة فاطمأنت بعض الشىء، لكن رواسب الأكدار

استقرت فى نفسها حتى النهاية، أمضت فترة الصبا والمراهقة تعيش مع أبيها.. وتقوم له بدور ربة البيت. تسأله عن أخوالها وأعمامها، فيجيبها بأنه لم يكن لأمها إخوة سوى أخ واحد مات فى الغربة، وليس له سوى شقيق واحد يعيش فى قريته بأقصى الجنوب وتمضى السنوات قبل أن يلتقيا.

تتوق للأهل والأقارب والرفيقات، وتراسل ابنة عمها فى بلدتـها البعيدة وتسعد بردها وتـحبها بغير أن تراها. عرفها هو وهى فى عامها الأخير بالجامعة.. رشحتها له جارة طيبة لأبيها تعرف ظروفها وتحبها وتحنو عليها. قالت له:

فتاة طيبة ووحيدة وتحب الناس، وتقدم لخطبتها فرحب به أبوها ولمس بعد قليل قبولها له وحرصها عليه. فنمت المشاعر بتؤدة وعمق. وغلبته مشاعره بعد قليل، وفاتحها بحبه فكأنما ضغط بيده على قشرتها الأرضية، فتفجر من تحتها ينبوع الحب المكتوم وأغرقه بطوفان من المشاعر. أحب أباها سريعًا واستراح إليه وأحبه الرجل واطمأن إليه فقال له:

لم أنجب ابنًا فكن ابنى الذى يحمى "أخته" من غوائل الحياة ويسعدها. وقالت له هى بعد الزفاف:

أنت وأبى كل دنياى وأهلى فلا تتركانى وحيدة مهما حدث.. ومهما

"أخطأت" فى حق أحدكما! فاحتضنها بإشفاق وطالبها بألا تتخلى هى عنه ذات يوم! وتعاهدا على ذلك.

لكن أباها لم يحفظ "عهده" طويلاً.. فرحل عن الحياة بعد ثلاثة أعوام من الزواج أنجبت خلالها طفلتها الجميلة ياسمين، فسالت دموعها أنهارًا.. وفى غمرة أحزانها لم تنس أن تذكره بأنه قد أصبح "كل" أهلها وتطالبه بتجديد "العهد".

وبإصرار يعرف أسبابه حاولت أن تنجب مرة ثانية وثالثة، فلم يأذن الله لها باكتمال الحمل مرة أخرى. ونصحها الطبيب بعدم تكرار التجربة لخطرها على صحتها فاستسلمت يائسة "وباكية" وهى تقول:

تمنيت ألا تعيش "ياسمين" وحيدة كما عشت حياتى، لكن إرادة الله فوق كل شىء.

وخفف عنها شجونها بكل ما استطاع من حيلة. وشجعها على العمل لكى تحس بالأمان، وتقتنع بأنها تستطيع حتى فى أسوأ الاحتمالات أن تعتمد على نفسها فى مواجهة الحياة. لكن كأنما استقر الخوف فى وجدانها ولم تعد تجدى معه وسيلة. لا تريده أن يغيب عن عينيها طويلاً ولو استطاعت لصاحبته إلى عمله.. أو اصطحبته معها إلى عملها. لا يستقر لها جانب فى الليل إلاّ إذا سمعت حركة قدميه فى الشقة، وأحست بأنفاسه إلى جوارها. تنام.. ولا تنام..

يتسلل إلى الفراش محاذرًا إيقاظها، فما إن يستقر فيه حتى يحس لمس يدها لشعره.. ويسمع صوتها الهامس يقول:

تأخرت يا بابا!

فإذا أجابها مفسرًا غيبته اكتشف أنها قد عادت للاستغراق فى النوم أو بدأت بمعنى أصح استغراقها الحقيقى فى النوم.

فكيف سيكون حال هذه "الخائفة" دائمًا، التى تحتمى به إذا عرفت أن سندها الوحيد فى الحياة مهدد بالخطر؟ لا لن يصارحها بشىء وسوف يخفى هذه الفحوص والأوراق عنها كما فعل طوال الأيام الماضية، وسيحتال عليها لإقناعها بأنه سيلتزم بنظام للأكل الصحى، ويمتنع عن التدخين والقهوة والشاى والمياه الغازية، لتخفيف وزنه بعد أن انتقده الأصدقاء لاتجاهه للبدانة. لكن هل ستقتنع حقًا بذلك؟. تأمل الموقف فتخيلها وهى تنظر إليه فى شك وسحب الهموم تتجمع تدريجيًا فوق جبهتها.. ثم تسأله فجأة: وما دخل القهوة والتدخين بالوزن الزائد؟..

وتحاصره بعد ذلك بالأسئلة والاستفسارات.. ثم تنفجر دموعها فجأة، وهى تصرخ كأنها اكتشفت "خيانته" قائلة:

يا ربى.. أنت عيان! قلبى قال لى ذلك منذ أيام.. ورأيت حلمًا

مخيفًا منذ بضع ليال.. رأيتك فى سرير أبيض.. وأنا وياسمين نقف إلى جوارك.

ثم تولول وتنتحب وتردد على مسامعه ما سبق أن سمعه منها مرارًا: يا ربى.. ماذا سأفعل أنا وياسمين لو جرى لك شىء؟

ثم تتدفق دموعها بلا توقف وتعجز عن الحركة من الفراش فى اليوم التالى، ويتصل بعملها لإبلاغ زملائها بمرضها، ويعتذر عن عدم الذهاب إلى عمله، ويمضى اليوم إلى جوار فراشها وهو يقسم لها أنه بخير.. وأن صحته كالحديد وأن المسألة لا تعدو فكرة طارئة لإنقاص الوزن، ولن يتمسك بها إذا كان فى ذلك ما يطمئنها.. وهيهات أن تطمئن بعد ذلك، إلا إذا اتصلت "سرًا" بصديقه الطبيب وسألته عن "الحقيقة".. وكررت الاتصال به مرات ومرات، ثم راقبته خفية فى كل حركة من حركاته حتى تهدأ هواجسها.

لقد كان حصيفًا حين لفت نظر صديقه إلى هذه المسألة.. وأوصاه إذا اتصلت به سميحة أن ينكر أنه زاره أو التقى به منذ أسابيع!

وسوف يعيد تذكيره بذلك حين يذهب إلى مكتبه غدًا.. أما الآن فلن يصارحها بشىء.. ولن يعرض عليها رغبته فى إنقاص وزنه أو الالتزام بالطعام الصحى. بل وسيتناول إفطاره العادى ويشرب معها قهوة الصباح كالعادة فى مجلسهما بصالة الشقة كل صباح قبل

الذهـاب للعمل.. وسيتناول معها كذلك طعام الغداء المألوف فى الرابعة مساء الذى تـحرص على اجتماع شملهما فيه مع ياسمين كل يوم حرصها على حياتـها، أما العشاء فقد تـجدى بعض الـجمل فى الاعتذار عنه، وسيتناول الدواء فى العمل فقط ولن يصحبه معه إلى البيت.. وليفعل الله بعد ذلك ما يشاء... نعم وليفعل الله ما يشاء وهو أرحم الراحمين.

واطمأن إلى ما انتهى إليه تفكيره فى النهاية، فأشار للجارسون ونقده حسابه.. واكتشف وهو يفعل ذلك أن فنجانه الذى اعتزم أن يكتفى بتذوق رشفه واحدة منه. ليس به سوى "تنوه" القهوة فى القاع ودوائر متشابكة ومتقاطعة من الخطوط على جدرانه الخالية، فتسللت ابتسامة حزينة إلى شفتيه وكأنما يهون الأمر على نفسه ويقول لها:

مرة وفاتت.

ثم نهض مغادرًا المقهى ووقف على الرصيف ينتظر سيارة أجرة.. ولوَّح لسيارة عابرة بالمظروف الذى يـحمله فتذكر أمره وتساءل فى قلق، ماذا أفعل بـهذه "المصيبة" الآن ومبنى العمل مغلق فى المساء.. وقبل أن يتوصل إلى قرار توقفت أمامه سيارة أجره، فانحنى ليركبها وسقط منه الـمظروف على الأرض وهو يركب السيارة فنظر إليه لـحظة وهمَّ بالتقاطه.. ثم تراجع وأغلق باب السيارة فقال له السائق منبهًا:

سقط منك "شيء" على الأرض.

فقال له وهو يتظاهر بالاستهانة:

إنها أوراق لا قيمة لها.. مدينة نصر.. من فضلك!

اقتربت السيارة السوداء من رصيف محطة السكة الحديد، فانفلت منها قبل أن تتوقف تمامًا شخص عملاق رياضى الجسم، كان يجلس إلى جوار سائقها، وفتح بابها الخلفى فنزل منه رجل وقور فى الخامسة والخمسين من عمره، يرتدى بدلة كحلية اللون أنيقة وينطق وجهه بالهيبة والجلال.. مضى الرجل فى خطوات متزنة إلى المحطة يتقدمه العملاق مفسحًا له الطريق، وقبل أن يصلا إلى رصيف القطار انضم إليهما شخصان آخران يمسك أحدهما بحقيبة أوراق صغيرة فحييا الرجل الوقور وسارا خلفه إلى عربة الدرجة الأولى. تقدم العملاق بين المقاعد يتفحص أرقامها باهتمام ثم توقف أمام أحد الصفوف وانتظر، وجاء الرجل الوقور وجلس فى مقعد مفرد وجلس الآخران فى المقعدين الزوجين المجاورين له، واطمأن العملاق إلى استقرارهم فى مقاعدهم فجلس فى مقعد مفرد خلف مقعد الرجل الوقور.

لفت المنظر انتباه فراش القطار فتقدم من الراكب الخطير، وحياه سائلاً عما إذا كان يحتاج إلى أى خدمة، فرد الرجل تحيته بتحفظ وصرفه شاكرًا. هدأت حركة الركاب فى العربة.. ودوى صفير القطار إيذانًا بالتحرك.. ففتح الرجل الوقور

حقيبة أوراقه، وأخرج منها ملفًا راح يتصفحه بلا حماس.. جاء الكمسارى يتفحص التذاكر فما إن اقترب من صف المقعد الذى يجلس إليه الراكب المهم حتى امتدت له يد السكرتير بتذاكر المجموعة كلها فتفحصها ثم تفحص الراكب المتحفظ بعين مدربة، ورفع له يده بالتحية سائلاً عن أية ملاحظة له أو مطلب فشكره الآخر وعاد إلى ملفه. وبعد قليل أحس بأن هناك من يتطلع إليه فرفع رأسه فرأى راكبى الصف الأمامى ينظران إليه باهتمام كأنهما ينتظران الفرصة لمصافحته أو الحديث معه، فقدر أنهما تعرفا عليه من صوره العديدة فى الصحف والتليفزيون، فهز رأسه لهما بتحفظ محسوب لكيلا يشجعهما على التقدم إليه بمطلب أو رجاء. وأحس العملاق الرابض خلفه بقرون استشعاره بما يدور فنهض واقفًا وهو يرمق الراكبين باهتمام، فأدارا وجهيهما وعزفا فيما يبدو عن المحاولة. خيمَّ التحفظ على المكان كأنما سرت العدوى إليه من الرجل الوقور ومرافقيه، فلم تعد تسمع فيه صوت ضحكة رنانة أو حديث صاخب، وخلُصت الأسماع لصوت عجلات القطار الرتيب، وفجأة انفتح باب عربة القطار بعنف واتجهت الأنظار تلقائيًا ناحيته فإذا بكهل أسمر ضاحك العينين أصلع الرأس شديد الحيوية، يحمل فوق ذراعه مجموعة من المجلات القديمة، ينطلق كالصاروخ فى ممر العربة غير مبالٍ بشىء، ثم يبدأ

بإلقاء خطبة قصيرة ضاحكة عن فضل كل شيء قديم على الجديد وكيف أن الزوجة القديمة أكثر إخلاصًا من الجديدة!.. والحذاء القديم يريح القدم أكثر من الجديد.. ولهذا فهو لا يبيع إلاّ المجلات القديمة!.. ثم يندفع عارضًا مجلاته على الركاب ويتبادل مع كل راكب كلمة ضاحكة يتحفه فيها بنكتة تنتزع منه الضحك أو الابتسام، ومضى ينثر المجلات والضحكات ويخلف وراءه الابتهاج إلى أن اقترب من الصف الخطير فنهض العملاق استعدادًا لإبعاده، لكنه لم يضطر إلى ذلك، فلقد ألقى الكهل الأسمر نظرة خاطفة على الرجل الوقور ومرافقيه، وأدرك الموقف فى لمحة سريعة فتجاوز الصف كله والصف الذى يليه أيضًا ثم واصل اشتباكه الضاحك مع الركاب، إلى أن انتهى من العربة وهمَّ بمغادرتها فاستدار خلفه ليرقب الرجل الوقور عن بعد كأنما أراد أن يتأكد من شيء ما، ففوجئ به يثبت أنظاره عليه، فأحنى الكهل رأسه مبتسمًا فى حياء.. ثم استدار وغادر العربة بنفس حركته النشيطة.

إنه هو لا شك فى ذلك.

قالها الرجل الخطير لنفسه وصدره يجيش بانفعال الذكرى.. ترى كم من الأعوام مضى على آخر مرة رأيته فيها؟

ليس أقل من أربعين عامًا بكل تأكيد.. عمر طويل تغيرت فيه الدنيا.. وتحددت المصائر وتفرقت الحظوظ بين رفاق الشارع القديم فى حى الحلمية الجديدة، فمنهم من أصبح مستشارًا خطيرًا.. ومنهم من أصبح طبيبًا لامعًا، ومنهم من صادفه سوء الحظ فانزوى مغمورًا فى إحدى الإدارات الحكومية، ومنهم من لم يزد نصيبه من الدنيا على بيع المجلات القديمة فى القطارات كهذا الكهل الأسمر.. فهل كانت البدايات واعدة بهذه الحظوظ؟ لا يمكن الجزم بذلك فلقد كان هذا الكهل الأسمر الذى يبيع المجلات القديمة هو نجم شلتنا وزعيمها الطبيعى الذى نتقرب إليه، ونحس أمامه بالانبهار والعجز عن منافسته فى أى شىء، فهو زعيمنا الذى ندين له بالطاعة بلا مناقشة.. وهو رئيس فريقنا للكرة وأبرع اللاعبين والذى يحدد بكلمة منه مصير أى لاعب منا، هل يشارك فى اللعب أو لا يشارك، هو قائدنا فى التصدى لعدوان عصابات الشوارع الأخرى علينا.. وفى الثأر منها لأى "زميل" تعرض لعدوانهم، وهو بعد ذلك صانع الابتسامة فى حياتنا.. ومدبر كل المقالب الظريفة ضد الكبار أو ضد بعض أفراد الشلة نفسها ومفجر الضحكات عالية فى كل مناسبة.. ثم هو أيضًا نجم ليالينا الذى نتحلق حوله فيسيطر على وجداننا بحكاياته الساحرة

التى يحفظها عن جدته العجوز عن أبو زيد الهلالى وعنترة بن شداد.. ومغامرات زورو وهارون "الرشيدى" وهو منظم دخولنا للسيرك حين يجئ إلى حيِّنا.

كان فقيرًا للغاية حتى إن جدته التى كانت تتكسب ببيع الفول السودانى لرواد المقاهى عجزت عن إرساله إلى المدرسة.. ومع ذلك فقد كان يحس بالتفوق علينا جميعًا.. ويزدرى ذهابنا كل صباح إلى المدرسة "كالأسرى" المغلوبين على أمرهم، ويحتقر خضوعنا الذليل "لـجبروت" المدرسين.. ويشكر ربه أنه ليس له من يرغمه على قبول هذا الذل! وهو يعيش وحيدًا مع جدته العجوز، ورغم مكانته العالية فلم يكن يستخدم قوته البدنية ضد أحد منا، لكن عقابه لمن يغضب عليه كان أشد من الضرب، فقد كان يجعله هدفًا لسخريته اللاذعة فيصبح أمثولة للآخرين.

غريبة هذه الدنيا.. ترددت العبارة فى رأس الرجل الوقور. وهو يسترجع ذكرياته البعيدة ثم قال لنفسه متنهدًا:

كم بتُّ من ليالٍ باكيًا من سخرية هذا الكهل الأصلع الذى مر بجوارى منذ قليل ولم يجرؤ على الاقتراب منى.. وكم عشت أيامًا طويلة ذليلاً لمقاطعته لى أو استهزائه بى.. وكم حاولت رشوته

بالـهدايا الصغيرة لكى يعفينى من السخرية أو الـخصام، فكان يتقبل منى الـهدايا ولا يغير من خطته معى، ولا يكف عن إعلان رأيه فىّ للجميع مصرًا على إنى "غبى" و"عيِّل" سريع البكاء!

وأما قمة إيذائه لى، فلقد صار من "تراث" الشلة الذى يُروى فى المناسـبات ولصق بى عاره حتى بداية سن المراهقة. فقد أراد اللعين أن يؤكد رأيه فى غبائى للآخرين، فأعلن لنا عن تنظيمه لمباريات فى صفع القفا بين جميع أفراد الشلة، بحيث يتصافع كل اثنين وتحكم "لجنة" أيهما كانت صفعته أقوى من الآخر، وتحمس الجميع كالعادة لفكرته، وفوجئت به يختارنى لأكون طرفًا فى أول مباراة بينى وبينه، وسعدت بهذا التكريم.. وأحنيت له رأسى طائعًا ليتفضل هو ببدء الصفع؛ إذ ليس من المعقول أن أطالبه بالعكس.. فانهال على قفاى بصفعة مدوية فقدتُ معها توازنى ثم تماسكت، ورفعت رأسى فوجدت الآخرين غارقين فى الضحك وهو أكثرهم.. واكتشفت أن الـجميع يعرفـون أنه يسخر من غبـائى الذى صوَّر لى إمكان تنظيم مباريات من هذا النوع أو أن أمد يدى بصفعة على قفا "الزعيم".. وانزويت خجلاً وقاومت البكاء بصعوبة بالغة حتى لا أتعرض للمزيد من سخريته، ورغم ذلك لـم أكرهه بل كان دائمًـا موضع إعجابى وحسدى لـجرأته وخفة دمه وانطلاقه.

ثم اختفى هذا الشيطان فجأة من حيِّنا وأنا فى نهاية المرحلة الإبتدائية القديمة، وقيل إن جدته رحلت به إلى قريتها البعيدة، لكن تأثيره فى شخصيتى لم يفارقنى بعد ذلك أبدًا، ففى المدرسة الثانوية خضعت طائعًا لزعامة زعيم المدرسة، وتقربت إليه بالهدايا والنقود لأحتمى به من سخرية الآخرين، وفى الوظيفة أيضًا فعلت دائمًا نفس الشىء وتقربت من الأقوياء وخضعت لهم حين تخرجت وعملت، فانتقل قيادى دائمًا من يد إلى يد حتى استقر فى يد أمينة هانم زوجتى وكريمة مديرى الذى نجحت فى التقرب إليه وبفضل حمايته ونفوذه ترقيت قدمًا فى الوظائف القيادية.

لكن أمينة هانم تتمادى فى الاستهانة بى وتستغل ذعرى القديم من السخرية أو الاستهزاء بى، فتسلط علىّ لسانها اللاذع وكلماتها القارصة فيحمر وجهى خجلاً وأعجز عن الرد عليها.. ورغم محاولتى دائمًا تجنب إغضابها والتودد إليها بالهدايا، فهى لا تنفك تسخر من ضعفى وعجزى واعتمادى عليها وعلى أبيها فى كل شئون الحياة.. فحتى أخطر القرارات العائلية تتخذها زوجتى دون اعتبار لرأيى أو موافقتى، وإذا ما اعترضت زجرت فى وجهى، وذكّرتنى بأفضال أبيها وأفضالها علىّ فى حياتى العملية؛ فزوّجت ابنتنا الكبرى وهى طالبة بالرغم من معارضتى الهادئة، ووافقت ابننا الأوسط على جنونه، فترك دراسة

الطب بعد 3 سنوات منها ليدرس السياحة والفنادق، ووافقت وهو الأفظع ابنتنا الصغرى على نيتها للهجرة مع زوجها لأمريكا رغم فزعى من فكرة ابتعادها عنى وهى أقرب أولادى إلى قلبى.

ترى ماذا كان يفعل هذا الشيطان الأسمر لو كان زوجًا لأمينة هانم؟ أكانت تستطيع فرض إرادتها عليه كما فعلت معى؟ أكان صهره يستطيع أن يتحكم فيه معظم سنوات عمره كما فعل معى؟ لكى كيف انتهى به الحال بائعًا للمجلات القديمة فى القطارات.. وأين ذكاؤه وقدراته العجيبة؟

إنه لا يزال متألقًا بالصحة والبهجة وخفة الدم والقدرة على إثارة إعجاب الآخرين، فلماذا لم يتحدث معى كما تحدث لغيرى؟ ولماذا لم يتودد إلىّ كما يفعل الآخرون؟ ألا يدرى "الغبى" أننى فى حاجة إليه لأتعلم منه بعض الجرأة والانطلاق وبعض القدرة على الرفض والمقاومة..

استغرق الرجل الخطير فى أفكاره فلم يتنبه إلاّ بعد حين إلى أن حارسه الشخصى ومدير مكتبه وسكرتيره يقفون أمامه فى أدب انتظارًا، لأن ينهض لمغادرة القطار.. فاستعاد نفسه سريعًا وأعاد الملف للحقيبة وسلمها لسكرتيره، ونهض فزرر الجاكت باهتمام ثم نظر

حوله بحرص، كأنما أراد أن يتأكد من أن أحدًا لم يطلع على ذكرياته المخجلة.. ثم تحرك فى وقار.. فتقدمه الحارس وغادر العربة فوجد رئيس الشركة التى جاء ليفتتح مبناها الجديد بالمدينة واقفًا بين أعضاء مجلس الإدارة فى الانتظار ورحب الجميع به بحرارة واحترام!.

أخيرًا اقتنع بأنه فى حاجة ملحة إلى أجازة قصيرة وإلا ساءت العواقب. اتصل بصديقه حسين فى الاسكندرية، وطلب منه أن يحجز له غرفة فى الفندق الصغير القديم المطل على الشاطىء. تهلل صديقه للخبر وتساءل مبتهجًا عن الفترة التى سيقضيها معه، فأجابه بأن ذلك رهين باستعادته لهدوء أعصابه التى أرهقها العمل وظروف الحياة.

صديقه حسين من أصدقاء الروح القدامى الذين يأنس لهم ويهرب إليهم كلما اشتدت عليه ضغوط الحياة. تزاملا فى المدرسة الابتدائية والثانوية، ثم افترقت بهما السبل فى الدراسة الجامعية واتخذ كل منهما لنفسه خطًا مختلفًا فى الحياة، فعمل حسين موظفًا بشركة عامة فى الاسكندرية وعمل هو محاميًا فى العاصمة المزدحمة لكن الصلة لم تنقطع بينهما أبدًا، فكثيرًا ما يلتقيان فى المصيف.. وكثيرًا ما يزوره حسين فى القاهرة، حمل حقيبته الصغيرة وركب الأتوبيس الفاخر، وتأمل الركاب قليلاً ثم استسلم لأفكاره. فترات السفر طويلة ومملة لمن ليس له رفيق فى رحلته.. وكذلك فى رحلة الحياة! تأمل طويلاً زوجين شابين يجلسان فى المقعد الأمامى ويسافران وحيدين فقال لنفسه ـ لم يأت الأطفال بعد فهنيئًا للقلوب

الشابة رحيق السعادة الصافى قبل أن تخالطه الهموم. مالت الزوجة الشابة على كتف زوجها وأراحت رأسها عليه.. وغيرّ الزوج من جلسته ليجعل من كتفه وسادة مريحة لها، فسرعان ما استغرقت الزوجة فى النوم، وانشغل الزوج بقراءة الصحيفة مشبعًا بإحساس الرضا والأمان العاطفى، فراقبه بعطف وتمنَّى له النجاة من الأحزان!

تسلّى بقراءة كتاب.. فراح يقرؤه بعقل غائب.. ويقطع قراءته بتأمل الزوجين الشابين كل حين. تنبه بعد قليل إلى أن جاره ينظر إليه متوددًا وراغبًا فى الكلام، فتمنَّى لو أعفاه من عناء حديث لن يبدد من وحشته شيئًا. تظاهر بالاستغراق فى القراءة ليسدَّ عليه مداخل الحديث لكنه فوجئ بصوته يسأله:

تحب الأسكندرية؟

فأجابه باقتضاب من لا يرغب فى وصل الحديث:

نعم.

ولم يكن ينتظر سوى هذه الإشارة، ليلتقط منها خيط الكلام ويبدأ حديثًا معادًا مثلاً عن حبه للأسكندرية وحرصه على أن يقضى الصيف بها منذ سنوات شبابه، فسمع له بابتسامة متكلفة آملاً أن يكفَّ عنه إلى أن يئس الرجل منه وانصرف إلى صحيفته.

وصل الأتوبيس إلى غايته فركب سيارة أجرة إلى الفندق القديم الذى شهد ذكريات العمر قبل أن تثقل القلب الأحزان. عشر سنوات كاملة لم يقترب خلالها منه ولا من المدينة نفسها.. فهل يذكره صاحبه العجوز؟ كان يأتى إلى هذا الفندق كثيرًا فى الصيف وفى الخريف وفى الشتاء، وكانت زياراته فى الخريف والشتاء أكثر وأمتع فيجد الفندق خاليًا.. والشاطىء جميلاً بغير زحام. لكن الحياة لا تمضى على حال واحدة طوال العمر. فسقيا لأيام السعادة الصافية..

قدَّم نفسه لصاحب الفندق فرحب به بفتور وأعطاه مفتاح الغرفة، ولم يستجب لنظرته الودود، لكن بريق التذكر لمع فى عينيه بعد قليل فقال:

أوه.. أستاذ عصام.. كيف لم أعرف الاسم مع أنى سجلته بنفسى؟

ثم استرد منه المفتاح الذى أعطاه له.. وقدم له مفتاحًا آخر لغرفة أمامية تطل شرفتها على البحر، فامتّن لتذكره له وحمل حقيبته إلى الغرفة. رتب ملابسه فى الدولاب وخلع بدلته الكاملة.. واغتسل ثم ارتدى بنطلونًا خفيفًا وقميصًا، وغادر غرفته إلى بهو الفندق فطلب من صاحبه مقعدًا يجلس عليه على الشاطىء كما كان يفعل أيام زمان، ورجاه أن يخطر صديقه حين يجىء بمكانه، على الرمال وضع

مقعده وجلس يستروح هواء البحر.. ويصغى لصوت الموج ويتأمل قرص الشمس الأرجوانى وهو يغطس ببطء فى أفق البحر.

استغرق فى تأمل موج البحر والزَبَد الذى يلقيه تحت أقدامه.. فتعجب من دورة الموج الأبدية تبدأ عالية صاخبة قوية حتى تظن أنها تتحدى الزمن، ثم لا تلبث أن تشيخ وتستسلم للفناء ككل شىء فى الحياة!

هكذا بدا له أيضًا أن حب "أميرة" له سيتحدى الزمن وسيفنى العمر قبل أن يفنى هو.. فما أبعد البداية الباهرة عن النهاية المستخزية.

قالت له حين تخرجا فى الكلية وبعد عامين من الحب الطاهر:

الآن انتهى جهادنا الأصغر لحماية حبنا من الخصوم، ويبدأ جهادنا الأكبر لتتويجه بالزواج.. فاستعد لأيام لا راحة فيها.

فقال لها: حين تحلو الأهداف.. يحلو الشقاء من أجلها.

وتحمَّل كل منهما نصيبه من الجهاد والشقاء راضيًا، فصمدت هى لمحاولات شقيقها الذى تعيش فى كنفه بعد وفاة أبويها لتزويجها من زميل له جاهز بالشقة والإمكانيات المادية، وتحمل هو سخرية شقيقه الأكبر الذى يضع يده على أرض أبيه الصغيرة من رغبته فى الزواج قبل أن يبنى حياته، وحين ذكرَّه بأنه قد تزوج فى سن أصغر من سنه أجابه بقسوة.

من يملك إمكانيات الزواج من حقه أن يتزوج، ومن لا يملك ليس من حقه أن يفكر فيه!

وعبثًا بعد ذلك حاول أن يستخلص منه ثمن قطعة الأرض الصغيرة، التى تمثل نصيبه فى ميراث أبيه مقابل بيعها له، وعبثًا حاول الاقتراض منه على إيراد السنوات القادمة.. وجاءه الجواب كالطعنة:

تعليمك تكلَّف أكثر من إيرادك السنوى بكثير.. وستظل مدينًا بالفارق لعشر سنوات قادمة!

روى لفتاته محاولاته الخاسرة مع شقيقه "وصدمته" فيه، فخففت عنه كثيرًا.

ومن أعماق الأحزان.. استمدَّا قوةً جديدة لتحقيق أهدافهما. عملت بإحدى الهيئات، وعمل هو موظفًا بالإدارة القانونية بإحدى الشركات.. وادخرا كل قرش كسباه معًا، وبعد عامين من التخرج لان شقيقها واستسلم لرغبة شقيقته، وبمدخراتهما معًا قدم لها شبكة متواضعة لم يخف الشقيق استياءه منها. وفى مفكرة صغيرة دوَّنَ كل قرش ساهمت به فى ثمنها ليرده إليها حين يحقق نجاحه.. وعلى مدى عامين آخرين ازدحمت صفحاتها بديون أخرى لشقيقته الكبرى المتزوجة ولأصدقاء العمر بُورك فى شهامتهم وفى مقدمتهم حسين، وفى اللحظة الأخيرة تعطف عليه شقيقه بمبلغ صغير اعتبره دينًا عليه.

وبمعجزة كمعجزات السماء تزوجا فى شقة صغيرة نجحا فى الحصول عليها بفضل مساعدة شقيق زوجته.

وقالت له حين أغلق عليهما باب غرفة النوم بعد الزفاف:

أحسُّ كأننا قد مشينا على الأقدام مشوارًا استغرق 6 سنوات فحذار من أن يفسد علينا شىء حياتنا التى كلَّت أقدامنا من أجلها. فقبَّلها سعيدًا وممتنًا.

ولم يخفف الزواج من جفاف الحياة كثيرًا، فلقد استمر تقشفهما بعده لردِّ الديون، وفى كل شهر يرصدان مبلغًا من مرتبيهما لسدادها وبتوجيه منها بدأ بديون الأصدقاء. بعد 4 سنوات نجحا فى تسديد كل الديون وأرادا أن يحتفلا بتحررهما منها.. فركبا القطار إلى الأسكندرية وأقاما فى هذا الفندق الصغير، وأمضيا فيه أجمل أيام حياتهما، وأصبح بعدها هذا الفندق واحتهما الصغيرة فى الصيف وفى الشتاء وكلما امتلكا تكاليف الرحلة.

وعامًا بعد عامٍ بدأت نسائم خفيفة من الرخاء ترطِّب جفاف حياتهما فزاد دخلهما تدريجيا.. وسبقته زوجته فى الترقى فى هيئتها ثم مات شقيقه وأبى أبناؤه أن يسلبوا عمَّهم أرضه فباعها لهم بمبلغ عادل. وبعقلها المتّزن رتبت له أن يستقيل من وظيفته، ويشترى مكتبًا صغيرًا فى وسط المدينة ليبدأ حياته فيه كمحامٍ حر.

وتـحملت فترة التأسيس الأولى فنهضت بأعباء الأسرة بمرتبها وحده.. وعملت كمندوبة دعايـة له فى وسطها العائلى والاجتماعى ولدى الـمعارف والأصدقاء، وقال لـها وهما يـحتفلان بعيد زواجهما العاشر:

أنت سبب كل خير حققته فى حياتى.

فأجابته بمكر:

أرجو ألا تنسى هذا حين تجرى النقود فى يديك! وأسكتها بقبلة على يدها ونظرة عرفان تُغْنى عن كل كلام.

وبعد عامين انتقلا من شقتهما البسيطة إلى شقة واسعة أثثتها بذوقها الفريد واحتفظ بشقته القديمة للزمن.

وحين بلغ الأربعين.. نظرت إليه فى إعجاب وقالت له:

ولا شعرة واحدة بيضاء فى رأسك.. كأنما أتقدم فى العمر وحدى!

فاحتضنها مؤكدًا لها أنه لا يرى فيها إلاّ بنت العشرين التى أحبها وهو طالب فى الجامعة.

نظر إلى الموج الصاخب.. فرأى قاربًا صغيرًا عبارة عن لوح من الخشب الأبيض يعلوه شراع صغير، يقوده شاب وفتاة ويعتمدان فى قيادته على توجيه الشراع يمينًا ويسارًا، ويتضاحكان فى بهجة كلما أفلتا من موجة عالية كادت تعصف بشراعهما.. فقال لنفسه:

كل شراع يحتاج إلى اثنين متحابين ليحمياه من الأمواج الهادرة..
فكيف غرق شراعه؟

ذات يوم دخلت مكتبه سيدة فى الثلاثين من عمرها متوسطة الطول ممتلئة فى غير ترهل.. وردية البشرة.. بضّة الملمس.. وجهها وشفتاها الغليظتان دعوة مفتوحة للحب والغزل. فخفق قلبه حين صافحها وأحس باضطراب غير مفهوم. كانت فى نزاع مع زوجها وتطلب الطلاق. ووجد نفسه يتحمَّس لخدمتها وتكرر اللقاء بينهما.. وفى كل مرة يحس بأنه يهبط درجة أخرى فى سلم الوفاء لزوجته، والأخرى تشجعه بخطوات محسوبة. ودهش كثيرًا حين عرف أن زوجها الذى تطلب الطلاق منه ليس زوجها الأول، وإنما تزوجت قبله وهى فى العشرين وطلقت بعد عامين، وتزوجت من زوجها الذى تريد الانفصال عنه الآن ولديها من كل زوج طفل! وغاص فى بحر الرمال الناعمة متعجبًا من ضعفه معها.. ومستخزيًا من نفسه ومن زوجته. وبعد عامين تزلزل عشه الصغير بالشقاق والفضيحة حين اكتشفت زوجته خيانته لها، وأنه قد تزوج من الأخرى سرًا منذ عام! وبإحساس الشريك الذى طُعن فى ظهره ممن قدَّم له كل شىء، لم تطلب منه طلاق الأخرى. وإنما طلبت منه بإصرار أن يطلقها هى! ولم تُجد معها محاولاته ولا ندمه ولا دموعه.. ولا وساطة الأهل والأصدقاء.. وكان ردها الدائم عليهم هو:

لا عقاب لمن يخون حب العمر.. سوى الانفصال عنه!

حتى طلاقه للأخرى لـم يـحرّك شيئًا فى قلبها ولـم يزحزحها عن طلب الانفصال. وطلقها باكيًا.. وتـخلّى لـها عن المسكن الفاخر وأدى إليها حقوقها كاملة، وذهب للأخرى ليعلنها بأنه سوف يردّها، ففوجىء بها تطرده من الشقة وتتحول إلى نمرة شرسة تـخمش وجهه بأظافرها وتسبه بأفظع الألفاظ وتطلب منه أن يـختفى من حياتـها، لأنـها لن تعيش مع "نذل" تـخلى عنها فى أول مـحنة. فعاد إلى مسكنه القديم يعيش فيه وحيدًا ثم لـم تـمض أيام حتى وصلته عريضة الدعوى من زوجتـه الثانيـة تطالبه بالـحقوق الـمادية، فتذكر يوم جاءته للمرة الأولى وتخيَّل ساهـمًا ما سوف تتركه فى نفس المحامى الآخر من أثر!

وشهرًا بعد شهر انتظر أن تصفح رفيقة عمره عن خطيئته فى حق الـحب والوفاء لكنها لا تصفح ولا تنسى، حتى علاقة الزواج بغير عشرة أو حياة مشتركة حفاظًا على الشكل الاجتماعى وصالح الأبناء رفضتها بإصرار، فزهد فى محاولة استعادتها واستسلم لـحياته الـجديدة وحيدًا فى الـخامسة والأربعين، فضّل أبناؤه الحياة مع أمهم على الانضمام إليه ولا يكاد يراهم إلاّ لـمطلب مادى أو لشأن من شئون التعليم والحياة. ونصحه أصدقاؤه بالزواج فتزوج بالطريقة

التقليدية من مطلقة شابة، ولم تستقر سفينة زواجه أكثر من عام واحد غرقت بعده فى بحر الشقاق وافتقاد الحب.

وبعد فشل زواجه ذهب إلى رفيقة حياته وقال لها:

الجرائم تسقط بمضى المدة.. وجريمتى قد مضت عليها 5 سنوات فدعينا نكمل مشوار حياتنا معًا.

ففاجأته بنيتها للزواج من أرمل زميل لـها فى العمل، وطمأنته إلى أن ولديـهما راضيان بزواجها وتركت له حرية القرار فى ضمهم إليه أو تركهم معها.. ودعتهما لسؤالهما أمامه فاختارا الحياة مع أمهما.. وتلقى القلب طعنة جديدة.

وهدد بأن يستعمل حقه القانونى فى ضم أولاده إليه، لكنه لـم يصمد طويلاً لإحساسه المؤلـم بأنـهما سيعيشان معه راغميْـن فسلّم بمـا يكره، وتعلق بالأمل الأكثر إيلامًا وهو أن تدفعهما احتياجاتهما المادية كشابين فى الـمستقبل إلى العودة إليه!

وتزوجت شريكة عمره من الرجل الآخر.. ونظمت حياتها بين أولادها وزوجها، فلم يسمع بشكوى من الولدين رغم استجدائه النفسى لمثل هذه الشكوى!

وآلمه حتى الموت أن الآخر يتسلل ببطء إلى قلْبى الصبييْـن، وأنه

كأرمل تزوجت ابنته الوحيدة يعاملها بعطف ويغدق عليهما من ماله فيئس حتى النخاع من استعادتها، وقال لصديقه حسين حين زاره منذ شهور: إنها جريمة "سرقة" بكل المقاييس، لقد سرقا حياتي وحبَّ أولادي.. فكيف يعجز القانون عن العقاب على هذه الجريمة؟ ونصحه صديقه بالزواج مرة أخرى وطالبه بإلحاح بأن يجيء إلى الأسكندرية لقضاء أجازة طويلة بعيدًا عن موطن الأحزان. ولم تخلُ حياته بعد ذلك من علاقات نسائية عابرة لم تطفئ نار الألم في صدره، ولم تبدد وحشته فعزف عنها وضاق بكل شيء في الحياة. ثم صحا من نومه ذات يوم فلاحظ قطرات من الدم على وسادته، وأسرع إلى الطبيب منزعجًا، فقال له بعد فحص شامل:

ضغط دمك انفعالي ومرتفع جدًا فكفَّ عن التفكير فيما يؤلمك.. وخُذ أجازة طويلة من العمل ومن كل ما يثير أعصابك.

وتوالت الفحوص فكشفت عن إصابته بالسكر واضطراب في ضربات القلب وأصبحت الأجازة ضرورة حياة.

فكّر في السفر إلى الخارج وحجز لنفسه مكانًا في رحلة سياحية من رحلات الصيف إلى أوروبا، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة، وقرر أن يسافر إلى الأسكندرية وأن ينزل في نفس الفندق الصغير القديم، وأشفق على نفسه من قيادة السيارة فركب الأتوبيس إلى هذا المكان. آملاً أن تخفف عنه صحبة صديق العمر وحدته وآلامه.

وتنبّه من أفكاره فجأة على يد تمس كتفه فأدار رأسه ناحيتها متوقعًا رؤية صديقه القديم، لكنه فوجئ بمنظر زميل قاهرى يقف مرتديًا الشورت وفى يده الأخرى سنارة صيد وهو ينظر إليه باسمًا وقائلاً:

تستمتع بمنظر الغروب على شاطئ البحر؟.. ما هذا "الروقان" كلّه؟

فبسط كفه إليه باسمًا بلا كلام كأنما يقول له: كما تَرى.

جاء إلى مكتبه متأخرًا بعض الشيء، فلاحظ كثرة عدد زواره المنتظرين للقائه هذا المساء. حيّاهم تحية متعجلة ودخل إلى غرفته. وضع حقيبته الجلدية السوداء على منضدة قريبة وفتحها وأخرج منها أوراقه ووضعها على المكتب، وجاءه الساعى بفنجان القهوة فاحتساه ببطء ثم رفع سماعة التليفون، وطلب من وكيل مكتبه إدخال الزوار. كانت أولى زائراته سيدة جميلة متوسطة العمر حيته بابتسامة حزينة فرد تحيتها باحترام. ودعاها للجلوس ثم عقد ذراعيه أمام صدره وتوجه لها بكل اهتمامه مشجعًا لها على الكلام.

بدأت حديثها خافضة الرأس فروت له قصة خلافها مع زوجها الذى عجزت عن احتمال نزواته وخياناته ومشاجراته الدائمة معها، فطلبت منه الطلاق، ورفض طلاقها إلا إذا كتبت له تنازلا عن كل حقوقها، فاستجابت لرغبته، وكتبت له التنازل المطلوب، لكنه تمادى فى إذلالها فطلب منها أيضًا أن تكتب له تنازلاً عن أولادها الصغار، وفى لحظة يأس من كل شىء كتبت له هذا التنازل مضطرة.

وبكت وهى تسأله هل يعنى ذلك حرمانها حقًا من أطفالها؟ لقد احتملت حياتها معه عشر سنوات حتى الآن من

أجلهم فهل تضيع تضحيتها عبثًا؟ وكيف تحتمل الحياة دون أطفالها.. وليته بعد ذلك كان قادرًا على رعايتهم.. إنه رجل عابث لا يستطيع تحمل مسئولية نفسه، فكيف سيتحمل مسئولية أطفال صغار يحتاجون إلى الحب والعطف والاهتمام؟ إنها لا تريد من زوجها شيئًا.. ولا حتى الشقة التى تعيش فيها ومن حقها البقاء بها حتى انتهاء حضانتها للأطفال، فهى مستعدة لأن تتركها له بشرط أن تضم أطفالها إليها فى مسكن أمها الذى تعيش فيه وحيدة، وليسعد هو بالشقة التى وضعت كل مدخراتها فيها وصنعت منها عشًا جميلاً كانت تحلم بأن تنعم فيه بالسعادة. وتوقفت عن الكلام لحظات جففت فيها دموعها ثم سألته:

هل أستطيع يا أستاذ أن أحصل على الطلاق بغير التنازل عن أطفالى؟ إن زوجى يستغل ضعفى لأنى وحيدة لا أخ لى يتصدى له، فهل تستطيع أن تساعدنى فى ألا يحرمنى من أطفالى؟ وسالت دموعها غزيرة مرة أخرى فصمت احترامًا لمشاعرها.. ورق قلبه لجمالها الحزين وقال لنفسه.. كيف يمتهن رجل سوىٌّ هذا الجمال المريح ويبحث عن نفسه، عن سلوى بعيدًا عنه؟ وقطع تأملاته بقوله لها:

سأفعل كل ما أستطيعه لك يا سيدتى.. وسأبدأ بالاتصال بزوجك ودعوته للقائى.. وسأحاول التفاهم معه بالحسنى قبل أن نبدأ

النزاع القضائى، وآمـل أن أنجح فى تسوية الأمر معه وديًا وبعيدًا عن الـمحاكم فاتركى لدى الوكيل رقم تليفونه وكل بياناتك وعنوانك.. ولنأمل خيرًا بإذن الله.

فسرت كلماته الواثقة إلى روحها الـمتلهفة إلى ما يطمئنها مسرى مريـحًا، ونظرت إليه بامتنان وشكرته بحرارة.. ثم هـمّت بالكلام مرة أخرى فبدت له مترددة ومحرجة بعض الشيء، وخـمّن هو بخبرته ما أثار ترددها فبادرها قائلاً فى سماحة:

لا شيء! ليس هناك أتعاب الآن أو حتى إذا نجحت فى التوصل لحل ودى مع زوجك بغير رفع الدعوى.

فقاطعته محرجة:

ولكن يا أستاذ!

فأجابها مؤكدًا:

لا شيء فعلاً كما قلت لك، فإنه يريحنى أن أسعد قلب أم لهفى على أطفالها مثلك، وكل ما أرجوه هو أن أنجح فى التفاهم مع زوجك.

فرفعت رأسها إليه شاكرة وقالت له:

يا إلهى ليس من فراغ حقًا ما يقولون عنك!

فابتسم للمرة الأولى وسألها باهتمام:

وماذا يقولون يا سيدتى؟

قالت:

يقولون إنك آية فى الحكمة.. والنزاهة.. والإنسانية وإنك تفضل حل المنازعات الزوجية بالود ولو خسر مكتبك القضية.. وتضع مصلحة الأطفال فوق كل اعتبار وتحاول بإخلاص إثناء من يلجأون إليك عن المضى فى نزاع الطلاق مراعاة لصالح أطفالهم. وقد كان هذا ما جاء بى إليك فرأيت كل ذلك وأكثر، فتولاه خجل غريب وقال لها ممتنًا:

شكرًا لك.

ثم صافحته باحترام وغادرت المكتب.

وتوالى دخول الزوار بعدها، فاستقبل أبًا يريد أن يقيم دعوى نفقة على ابنه المهندس الكبير الذى يتنصل من مسئوليته عن أبيه الشيخ بدعوى أن نفقات أولاده تستهلك كل دخله، وأن معاش الأب الضئيل يكفيه، واستمع فى صبر إلى حديث الأب الطويل عن تضحياته، لكى يعلم هذا الابن ويحصل على أعلى الشهادات، وحرمانه لنفسه من ضروريات الحياة لكى يوفر له تكاليف الدراسة

بكليته العملية، واستبداله لـجزء من معاشه لكى يساعده على بدء حياته.. والآن يضن عليه بالقليل بدعوى أن معاشه الذى لا يزيد على جنيهات تكفيه.. هل يـجوز هذا يا أستاذ؟ هل يـجوز يتركنى فى هذه السن أتردد على المستشفيات الـحكومية وأبحث عن العلاج الـمجانى، وهو وأولاده يركبون السيارات، وبعد كل ذلك يضيق بزياراتى له، ويطلب منى ألاّ "أرهق" نفسى بالـحضور إلى بيته كثيرًا، وإذا مرضت وطالبته بشىء من النقود للعلاج لا يقدم لى إلاّ أقل القليل؟ هل هذا عدل يا أستاذ؟

وبكى الشيخ.. فتمزق قلب الأستاذ عطفًا عليه وطيَّب خاطره ووعده بأن يرسل إلى ابنه إنذارًا بتخصيص مبلغ عادل لأبيه كل شهر مع تـحمله لكافة تكاليف علاجه.. فإنْ لـم يستجب فسوف يقيم الدعوى عليه ويكسبها له بإذن الله. واستراح الأب الشيخ لكلماته وشكره بحرارة عليها ودعا له طويـلاً بطول العمر وبِرّ الأبناء به فى كبره وبسعادة الدنيا والآخرة، ونـهض الـمحامى الناجح ليودعه حتى باب الـمكتب وهو يطلب منه ترك بياناته لدى وكيله وتلقى منه الشكر مرارًا.. وتكرارًا.. وهو يبتسم خجلاً إلى أن غادر الـمكتب راضيًا وتوالى الزوار.. واستمع إلى كثير من الـمنازعات والـخلافات وبدا للجميع صوتًا للحكمة ورمزًا للرشاد والاتـزان النفسى، والاستقرار وقالت له إحدى زائراته مادحة وهى تغادره:

هنيئًا لمن كنت لها زوجًا وشريك حياة، وأنت بهذا الخلق الطيب وهذه الروح السمحة وهذا العقل الراجح!

وكال له آخرون الثناء بلا تحفظ.

وغادره آخر الزوار فى الساعة الواحدة صباحًا.. فجمع أوراقه وحمل الساعى حقيبته إلى السيارة، وودع وكيل المكتب والسكرتير وانصرف محاطًا بالاحترام والإعجاب.

عاد إلى بيته فأدار المفتاح فى باب الشقة ودخل فواجهه ظلام المسكن. أضاء نور الردهة الأمامية.. ثم الصالة ودخل غرفة نومه فخلع الجاكيت وألقاه بلا اهتمام على الفراش الخالى.. وبدأ يخلع ملابسه فتذكر وهو يرى ملابسه مبعثرة فى كل مكان صوت السيدة التى قالت له هذا المساء: هنيئًا لمن كنت لها زوجًا! وقال لنفسه صامتًا:

لم يكن هذا رأيها، وإنما شكت دائمًا من سوء حظها الذى أوقعها فيه من بين كل الرجال، وندبت مرارًا غفلتها حين خُدعت بالحب وتزوجته، فكشفت لها عشرته كما تقول عن شخص آخر! وأنكرت عليه كل فضيلة وحتى مزاياه التى يمدحه بها الآخرون، عدّتها عليه عيوبًا يصعب احتمال الحياة معها، فالعقل والصبر.. برود.. والاتزان لامبالاة بحقوق الزوجة "الصابرة"، و"الأمانة" فى العمل تفريط فى

حقوق الأولاد ومسقبلهم من أجل أن تخرج من عنده سيدة فارغة العقل مشيدة بإنسانية الأستاذ الكبير!

أما عند الخلاف فتنطلق قذائفها غير مفرقة بين طيب وخبيث حتى إنه كثيرًا ما شك فى جدوى الفرق بين الخير والشر.. فكل ما ينبغى أن يحسب له ويشكر عليه عند المنصفين تحسبه عليه وتلومه عنه. ومن حين لآخر تأخذ طفلته الوحيدة وتعود إلى بيت أبيها دون سابق إنذار وبلا خلاف أو شجار. ويسألها لماذا؟ فتجيب:

أعصابى.. أريد أن أريح أعصابى بعض الوقت.

ثم يعيش وحيدًا يفتقدها ويفتقد ابنته لفترات طويلة، وكلما زارها ليرى ابنته ويدعوها للعودة إلى بيتها طلبت التأجيل. ولم تهتم حتى بسؤاله عن أحواله فى غيابها! وشكا لأختها بما يلاقيه معها وما تتهمه به من اتهامات ظالمة فقالت له مواسية: لا عيب فيك.. لكنها مدللة وتريد من الجميع أن يتركوا حياتهم ليتفرغوا لتدليلها، فتحملها من أجل ابنتك ومن أجلها هى أيضًا فهى تحتاج إليك وبغير حمايتك لها سوف تضيع.. نعم تحمل فهذا قدرك.. هكذا قال له أيضًا أبوها وهكذا يقول له الجميع فيستسلم مرغمًا.. وينتظر فى صبر انتهاء الزوبعة الطارئة وعودة الحياة لصفائها. ويستمتع بالقليل الذى تسمح

به طبيعتها من العطاء، ويقول لشقيقه كلما حثه على أن يطلقها ويتزوج ممن تتباهى به وتكرس له كل حياتها:

لا أريد لابنتى أن تنشأ ممزقة بينى وبين أمها.

ويواصل الحياة معها صابرًا.. ومترقبًا هبوب العاصفة القادمة التى لن تنبئ بها للأسف أية مقدمات!

ويقارن كلما ضاق صدره بين حالها وحال الزوجات الكثيرات اللاتى يتولى قضاياهن، ويتحسر حين يلمس ماناله من امتهان وتعذيب وخيانة على أيدى أزواجهن، ومع ذلك فقد بذلن المستحيل لكى يحتملن الحياة ويحتفظن بهؤلاء الأزواج.. فيتساءل لو كنت زوجًا كهؤلاء الأزواج هل كانت ستفعل معى ما تفعله الآن؟

انتهى من خلع ملابسه فارتدى البيجامة، وغادر غرفة النوم إلى المطبخ، لم يتناول طعامًا منذ الظهر ولم يشرب سوى القهوة والسجائر طوال المساء. فتح الثلاجة وأخرج علبة الجبن وقطع التوست وراح يزدرد طعامه بلا رغبة ثم حمل كوب الشاى وعاد إلى الردهة.. حاول أن يقرأ فوجد نفسه شاردًا عما يقرؤه، وضع فيلمًا جديدًا فى الفيديو وجلس أمامه، فاكتشف بعد نصف ساعة أنه لم ير شيئًا منه فأوقفه ودخل إلى غرفة النوم استلقى على فراشه، وحاول النوم فأطل عليه

وجه ابنته الحبيب من ظلام الغرفة وزن فى أذنيه صوتها الرقيق وهى تقول له فى آخر زيارة:

أريد أن أذهب معك ومع ماما إلى "الزرافة"!

لـم يدُم الصفاء طويلاً منذ جاءت طفلته إلى الـحياة وفى نوبات الهدنة القصيرة من التعاسة، كانا يخرجان مع طفلتهما إلى حديقة الـحيوان ويقفان بها طويلاً أمام الزرافة التى استهواها منظرها الفريد.. وتذكر ألمه حين سألها أن تخرج معه إلى الحديقة تلبية لطلب ابنتهما فاعتذرت بعدم رغبتها فى ذلك ونصحته بأن يذهب بها وحده!

تأكد من أنه لن يستطيع النوم بغير القرص المهدئ.. فنهض من سريره متثاقلاً وابتلع قرصين. أغمض عينيه مرة أخرى محاولاً النوم.. فلم يقترب منه النعاس، وأحس برغبة ملحة فى أن يُـحدِّث أحدًا ويفتح له قلبه ويبثه شجونه وهمومه.. فإلى من يتحدث فى هذه الساعة!

شقيقه الوحيد ينام مبكرًا وسوف ينزعج بشدة إذا اتصل به الآن. وأصدقاؤه جميعًا غارقون الآن فى النوم إلى جوار زوجاتهم.. ورنين التليفون فى مثل هذه الساعة إزعاج يصعب الاعتذار عنه. أما شهير صديقه الوحيد الذى مازال أعزب يعيش وحيدًا ولا تزعجه اتصالاته المتأخرة، فهو مسافر وسوف يطول غيابه أسبوعين آخرين.. بمن

يتصل الآن؟ اهتدى أخيرًا لمن يستطيع الاتصال به فى هذا الوقت المتأخر بلا حرج، فجذب سماعة التليفون إليه وهو راقد فى فراشه وأدار القرص وبدأ يتحدث هامسًا:

مساء الخير.. آسف للإزعاج فى هذا الوقت المتأخر من الليل.. لكننى ضيق الصدر الآن وأريد أن أتحدث معك لفترة قصيرة.. لاأعرف ماذا انتابنى هذه الأيام فلم أعد أستطيع النوم، وشهيتى للطعام مفقودة.. وأدخن بشراهة وأسرف فى شرب القهوة، وأشرد كثيرًا كلما وجدت نفسى وحيدًا فى فراشى خلال الليل، وأراجع حياتى لأعرف ما هو الخطأ فى شخصيتى أو تصرفاتى الذى حرمنى من حقى فى أن تكون لى حياة مستقرة سعيدة كغيرى من الناس.. فلا أجد شيئًا محددًا. ماذا تقولين؟.. نعم.. نعم ربما يكون سوء حظى فى الحياة أو أنى أحببت من لا تحبنى.. أو لعلها تحبنى ولكن أقل مما ينبغى كثيرًا.. فضلاً عن أنها مدللة.. وعصبية لا تعترف بخطأ.. ولا تقدر مشاعرى كزوج وكأب. تصورى أنها تركت البيت منذ شهور لمجرد أننى بعد عشر سنوات كاملة من الاحتمال فقدت أعصابى معها مرة واحدة وصحت فيها لكى تكف عن الصياح والشجار بلا سبب بعد منتصف الليل.. فزادت من الصياح فوضعت يدى على فمها لأسكتها فاعتبرتنى أضربها، وملأت الدنيا عويلاً

وبكاء وصراخًا، وفضحتنى بين أهلها وأهلى والـجيران، وفى الصباح حـملت ابنتى وعادت لبيت أبيها، وقالت إنـها ستبقى فيه حتى تنسى ما فعلته معها! وتـمضى الأيام دون أن تتصل بى تليفونيًا أو تسأل عنـى.. وأزورها وأدعـوها للعودة إلى بيتها فتقول لى إنـها لـم تنس بعد! وأسألها ما ذنب طفلتنا فى أن تـحرمها من أبيها فتقول لى: ذنبها أننى أبوها!

هذه هى جريمتى التى تركتنى من أجلها منذ شهر هل تصدقين ذلك؟.. مرة واحدة فقط لم أستطع فيها الاستمرار فى تحمل صوتها العالى الذى يسمعه الجيران بعد منتصف الليل.. فصحت فيها ووضعت يدى على فمها. هل ارتكبت جريمة لا تغتفر حين فعلت ذلك؟ أليس من حقى أن أثور مرة واحدة فى عشر سنوات وهل يبرر ذلك كل ما حدث؟. نعم أستطيع أن أطلقها وأستطيع أيضًا أن أتزوج غيرها وربما أفضل منها، لكن ما ذنب ابنتى.. وما ذنبى أنا لكى أدفع ثمن تدليلها ومزاجها العصبى.. و... و...

وواصل الحديث الهامس فترة طويلة.. ومن حين إلى آخر يجيبه الصوت النسائى فى "الساعة الناطقة" التى أدار رقمها برتابته المعهودة:

الساعة الآن الرابعة وعشر دقائق وثلاثون ثانية!

الساعة الآن الرابعة وعشر دقائق وأربعون ثانية!

... وكلما انقطع الاتصال أدار نفس الرقم من جديد وواصل الكلام فى تأثر.. واهتمام!.

لم تكن جميلة ولا جذابة بمقاييس الجمال والجاذبية المألوفة.. لكن روحها كانت تشع طيبة وعطفًا وتسامحًا، لهذا لم تشعر كثيرًا بالمرارة لافتقارها إلى المال.. وإنما سلمت بالأمر الواقع وتقبلته وحاولت أن تعوضه بروحها العطوف وعشرتها المخلصة للجميع.

وكانت على استعداد دائمًا لأن تتنازل عن كثير من مطالبها فى فتى الأحلام، وتتحدث عن ذلك بصراحة مع أمها، وتقول لها حين تتمنى لها كعادة الأمهات "أفضل العرسان": وماذا يجد عندى أفضل العرسان مما يبحث عنه لدى الفتيات.. وملامحى ليست جميلة وشعرى خشن وجسمى غير متناسق، ولست ثرية فيعوضنى الثراء عن نقص الجمال؟ فتسكت أمها متألمة.. وتدعو لها فى سرها بأن يوفقها الله إلى من يتجاوز عن مظهر الجمال ويطلب جمال الروح وطيبة القلب..

وتخرجت فى كليتها.. وعملت بإحدى الهيئات.. وجمعها العمل بزميلات وزملاء جدد سعدت بزمالتهم.. وبدت لهم دائمًا قلبًا مفتوحًا يرحب بالغرباء ويتلهف على الصداقة الخالصة.. وتلاقت ميول بعض الزملاء والزميلات

فى العمل فنسجت قصص حب.. وبدايات زواج ولـم يقترب منها أحد يطلب حبها وعواطفها الـمكبوتة.. وبدلاً من أن يكون لـها سر شخصى تعتز به وتؤثر به الصديقات الـمقربات، وجدت نفسها بعد فترة موضع ثقة الرجال والفتيات من زملائها وموضع أسرارهم.. يرجوها كـل راغب فى الزواج أن تكون سفيرته إلى من يطلب ودها من زميلاتـها، فلا تقبل أن تـؤدى الـمهمة إلاّ إذا تأكدت من صدق نياتـهم، وتقوم بالـمهمة بأمانة، وتسعد بنجاح مسعاها حين تُدعى لـحفل الـخطبة التى كانت واسطة الـخير فيها.. وتتحدث لأمها مبتهجة بما فعلت.. فتشعر الأم بغصة فى صدرها.. وتقول لها: تسعين بالخير بين الناس ولا يسعى لك أحد!.

فيتعكر صفوها للحظات.. لكنها تهز رأسها بعد قليل طاردة الهموم والوساوس وتعود لطبيعتها الطيبة.

كان فى إدارتها ثلاث فتيات تزوجن جميعًا أو خطبن لزملاء فى نفس الإدارة أو من الإدارات الأخرى.. وكانت هى سفيرة الخير إليهن جميعًا وبقيت صديقة للجميع، ولكن بغير أن يقترب منها أحد وارتبط الشبان فى إدارتـها جـميعًا بزميلات من الهيئة أو من خارجها، وبقى واحد منهم صمد للإغراءات، وعزفت عنه فتيات الـهيئة وبررن فشلهن معه بغروره بوسامته.. واعتزازه بأسرته وإمكاناته المادية التى

أورثته إحساسًا بالتفوق على زملائه.. فهو وارث بين زملاء مكافحين يملك قطعة من الأرض الزراعية وبيتًا قديمًا يدر عليه عدة مئات من الجنيهات سنويًا وسيارة صغيرة قديمة.. وصدقت تنبؤات زميلاته له بأنه لن يتزوج من مجتمع العمل، وإنما من فتاة باهرة الجمال يتباهى بها فى وسطه العائلى.. ففى نهاية العام الثانى من عملها رأت دبلة الخطبة فى أصبعه.. وتهامست الزميلات عمن عساها تكون خطيبته.. لكنه لم يتحدث عنها لأحد إلاّ لزميلته طيبة القلب "سميحة" التى تحظى بثقته، فعرفت منه أنها فتاة جميلة من أسرة ثرية تعرَّف بها فى النادى الذى ورث عضويته عن أبيه، وتقرب منها حتى مالت إليه وقبلت خطبته..

وتوالت أخباره عليها.. تمت الخطبة والشبكة.. طلبت أسرتها مهرًا باهظًا.. واشترطت خطيبته عليه أن يبيع شقته الحالية، ويشترى شقة أخرى من 5 غرف فى الحى الراقى الذى تسكن فيه.. باع آخر قطعة من الأرض التى ورثها عن أبيه.. واشترى الشقة المطلوبة بمبلغ خرافى، ولم يتبق له من ميراثه سوى بضعة آلاف من الجنيهات يحتفظ بها فى البنك ويستعين بعائدها وإيراد البيت القديم على نفقات حياته، وتم الزواج ودعاها إلى زفافه وحدها من بين زميلاته. فرأت عالمًا جديدًا من البشر المتألقين فى الملابس الفاخرة والنساء اللامعات بالجواهر الثمينة، سافر مع عروسه إلى البحر

الأحـمر لقضاء شهر العـسل، وعاد مبتهجًا متألقًا بدماء الصحة ورواء السعادة.. لكن سماءه تكـدرت بغيوم الـمشاكل بعـد شهور قليلة من الزواج وأسرّ إليـها بـهمومه متشكيًا: مُدللة إلى أقصى حد.. لا تـحتمل كلمة عتاب واحدة وتغضب لأتفه سبب.. وتـهجر وتغلق دونه باب غرفتها.. عصبية تتفجر بالسباب واللعنات عند أول بادرة خلاف.. تترك البيت وتعود إلى أسرتـها وتطلب الطلاق، ولا تعترف بخطأ ولا تعتذر عنه.. وتنتظر منه دائمًـا أن يبدأ بالصلح والاعتذار. مسرفة إلى حـد الـجنون.. ولا تنفق من مالـها قرشًا واحدًا وتعيرّه بقلة دخله وتقارنـه بـأزواج شقيقاتـها وقريباتـها الناعمات بثراء أزواجهن.. وينفد مرتبه وعائد مدخراته فى البنك وإيـجار البيت القديم فى الأسبوع الأول من الشهر.. وتطلب منه الـمزيد فيسحب من رصيده الذى يدخره للزمن ليعطيها رغم حاجته لعائد هذا الرصيد.. وهى تسمع له وتتألـم وتشير عليه وتتعاطف معه..

وتحكى لأمها عن زميلها الوسيم الذى كان موعودًا بأفضل الحظوظ، فإذا به يعانى مع زوجة مدللة أنانية، فتقطع عليها أمها استرسالها متسائلة ولماذا لم يتزوجك.. وأنت أعقل الفتيات؟

فتهز رأسها مستبعدة الفكرة وتقول لها:

يا ماما أين أنا منه.. وهو الذى رفض زميلاتى الثلاث الجميلات، ولم تنجح إحداهن فى اجتذابه إليها؟ ويوم يجئ إليها ساهمًا، ويسر

إليها أنه قد طلب أجازة من عمله ليسافر للعمل فى دولة عربية لكى يستطيع أن يفى بمطالب حياته المرهقة مع زوجته، فتقول له:

دخلك يكفى لحياة كريمة لكن لا بأس بالكفاح فى سن الشباب؟.

وغاب عن إدارتها عامًا كاملاً.. ثم ظهر فيها فجأة وكأنها قد زاد عمره عشر سنوات، وتجعدت ملامحه الوسيمة، وتهللت الوجوه لرؤيته وتواصل حديث الذكريات لفترة.. ثم تشاغل الزملاء بشئونهم.. فحمل فنجان القهوة إلى مكتبها وجلس أمامها راغبًا فى الحديث.. وسألته عن الأحوال فراح يروى لها فى أسى أنها تزداد سوءًا.. وأن زوجته رفضت أن تلحق به فى مقر عمله كما اتفق معها فى البداية، ثم ثقلت عليه الوحدة فألح عليها فى اللحاق به، وجاءت إليه فلم تحتمل البقاء معه سوى شهر واحد لم يخل من شجار ومنغصات، وأمضت معظمه فى سوق المدينة تشترى وتختار الملابس والهدايا، واستهلكت معظم مدخراته عن العام الأول فى مشترياتها ونفقات سفرها.. ثم أصرت على ألاّ تنتظر أجازته السنوية، وعادت ساخطة على جفاف الحياة فى مقر عمله، وعاد هو فى أجازته بالنزر اليسير من المدخرات فطالبته بشراء شقة فى المصيف! وغضبت حين اعتذر بعجز مدخراته عن تلبية مطلبها.. وتكدرت أيام الأجازة التى انتظرها طويلاً وحتى الآن ترفض

الإنجاب.. وتطالبنى بالانتظار ثلاثة أعوام أخرى حتى أعود للاستقرار فى مصر لكى أكون إلى جوارها فى فترة الحمل!.

وقالت لنفسها: نعم كان معتزًا بوسامته وإمكاناته النسبية وسط مجتمع من البائسين، لكنه لا يستحق هذا الحظ العاثر.. فهو طيب فى النهاية ولا يضمر شرًا لأحد..

وغاب أسبوعين ثم ظهر مرة أخرى فى الإدارة شاردًا متوترًا، كأنما لم ينم ليلته، وطلب منها أن تدعوه إلى فنجان من القهوة.. وتشاغل عنه الزملاء فسألته عما به فأجابها: انتهى كل شىء منذ يومين.. رفضت السفر معى.. وطلبت الطلاق.. وأهانتنى لمطالبتى لها بالسفر معى فطلقتها فأخذت كل شىء.. كل شىء مما لها وما ليس لها وتركت الشقة على البلاط.. وأنفقت كل ما بقى معى من مدخرات العمل فى الخارج فى سداد مستحقاتها، وسحبت جزءًا جسيمًا من رصيدى بالبنك، وأطرق برأسه متألمًا.. فقالت له: ستبدأ من جديد.. وستسافر مرة أخرى لتعوض ما خسرت.. وستتزوج ممن تستحقك.. وإن شئت فسوف أزوجك حين تعود فى الأجازة القادمة ممن هى أفضل منها!

فرفع رأسه إليها وهو يقول:

أخشى أن أكون قد فقدت الثقة فى نفسى وفى كل الفتيات! ثم ودعها وانصرف..

وتوالت الأنباء السعيدة فى الإدارة التى تعمل بها.. فتم زفاف "علية" و"ابتسام" إلى زميلين من الهيئة كانت هى واسطة الخير إليهما.. ووفقت "نهلة" للعثور على الشقة المناسبة استعدادًا للزواج من "كمال" زميلهما بنفس الإدارة، وتزوج شقيق سميحة الأصغر وانتقل إلى مسكنه الجديد فخلا البيت عليها وعلى أمها.. بعد أن سبق الشقيق الأكبر بالزواج منذ 5 سنوات.. وفشلت كل محاولات الأم لتزويج ابنتها فاستقر الرثاء لها فى أعماقها..

وجاء الصيف.. وذهبت سميحة إلى عملها ذات صباح فوجدت زميلها السابق الوسيم يجلس بين حلقة من الزميلات والزملاء يرحبون بعودته بعد غياب عام طويل.. وصافحته بابتهاج وشاركت الجميع احتفالهم به ثم انصرف كل منهم إلى عمله.. ودعته هى إلى فنجان القهوة الأثير لديه أمام مكتبها، فروى لها عن نفسه الكثير ثم قطع حديثه قائلاً لها:

"سميحة لقد كنت دائمًا واسطة خير بين الزملاء والزميلات فى موضوع الزواج.. فهل توافقين على أن تؤدى لى مثل هذه المهمة؟"..

وأجابته بحرارة:

بكل تأكيد.. فقط قل من هى.. وفى أى إدارة من إدارات الهيئة.. وسوف أذهب إليها على الفور وأزكيك لديها بما تستحقه.

فأطرق برأسه قليلاً ثم قال:

لن تذهبى بعيدًا.. فهى فى هذه الإدارة نفسها..

فارتفع حاجبها دهشة.. وتلفتت حولها كأنها تبحث بين زميلاتها الثلاث عن زميلة لم تتزوج بعد... ثم قالت له:

ليس فى هذه الإدارة فتيات لم يتزوجن بعد..

فأجابها باسمًا:

لا بقيت واحدة منهن لم تتزوج.. وهى أكثرهن طيبة.. وأجدرهن بأن تكون زوجة سعيدة.. بقيت "سميحة" وأريدك أن تتوسطى لى لديها لتقبل اعتذارى عن تجاهلى لها خلال السنوات الماضية.. وأن تسأليها نيابة عنى.. هل تقبل أن تتزوج من مطلق صادف سوء الحظ فى زواجه الأول؟.

وخفق قلبها بشدة.. واحمر وجهها خجلاً وارتباكًا.. وتلفتت حولها بحذر لترى هل يتابع الزملاء بالمكتب حديثهما أم لا، فوجدتهم جميعًا مشغولين بما بين أيديهم.. فراودها الإحساس بأنهم يعرفون بالأمر ويتظاهرون بالتشاغل عنهما.. فسكتت متحيرة.. وطال الصمت دقيقتين فقال لها وهو ينهض بصوت خفيض:

أرجو ألا تتعجليها الإجابة وإنما دعى "لها" الوقت الكافى لتفكر فى

الأمر، وسوف أمر بك بعد يومين لأعرف "جوابها"، فإذا قبلت فأرجو أن تبلغيها أنى سأسافر إلى عملى بعد ثلاثة أسابيع وأريد أن أعقد قرانى "عليها" فى أقرب وقت، وأصطحبها معى إلى حيث أعمل، وإذا رغبت ألاّ تسافر معى فلا بأس بذلك فإنى لن أبقى فى الخارج أكثر من عام آخر ثم أعود لأستقر فى بلدى بصفة نهائية وسأقبل ما تختاره..

ثم انصرف عنها وهى جامدة فى مقعدها لا تتحرك، وتكاد لا تعى مما يقول شيئًا.. وظلت ساهمة شاردة إلى أن تنبهت على إحدى زميلاتها وهى تحدِّثها.. فاعتذرت عن شرودها وشاركتها الحديث بذهن غائب.. وبعد يومين جاء إلى الإدارة.. وتسامر مع الزملاء بعض الوقت وهو يسرق النظر إليها من حين لآخر.. فيجدها تغض بصرها كلما التقت عيونهما.. وأخيرًا حمل فنجان القهوة إلى مكتبها وجلس أمامها ثم قال لها:

والآن "يا بطلة" ما هى نتيجة مسعاك الذى كلفتك به؟

فاحمر وجهها حتى بدا له فى تورده بحمرة الخجل جميلاً للمرة الأولى، ثم أطرقت برأسها وهى تقول له فى كلمات متعثرة:

"حدثتها" بأمرك..

"فوجدتها" تقدرك كثيرًا وتميل إليك بل لقد كانت "صريحة" مع

نفسها ومعى، فاعترفت لى بأنها كانت تتمناك وتراك نجمًا عاليًا فى السماء بعيدًا عن أن تناله ذات يوم.. ولهذا فهى ترحب بك.. وتغبط نفسها على هذا الحظ السعيد، لكنها للأسف لا تستطيع أن تسافر معك وتترك أمها وحيدة فى مصر.. ولا تفضل أن تعيش بعيدًا عن زوجها، ولهذا "فهى" ترجوك أن تكتفى من العمل بالخارج بالسنوات التى مضت وتعود لتستقر فى بلدك.. وتطمئنك إلى أنها لن ترهقك بمطالب مادية، كما أنها ترى أن دخلك هنا مع مرتبها الذى ستعينك به على أمرك يكفيان وأكثر لحياة كريمة، والمهم هو السعادة واجتماع الشمل وليس أى شىء آخر!.

وسمع كلماتها منتشيًا وشكرها بحرارة ثم التفت إلى زملائه المتشاغلين عنهما بالعمل أو الحديث.. ورفع لهم إبهام يده اليمنى علامة التوفيق فى مسعاه!.. فانفجرت الابتسامات والضحكات من حولها.. وتأكدت مما شكَّت فيه من قبل من أنه قد حدَّثهم جميعًا برغبته فى الزواج منها، وانهالت عليها التهانى الصاخبة وعرفت من زميلاتها فى مرحهن أنه حاول توسيط إحداهن لديها فاعتذرن جميعًا عن المهمة، ونصحنه بأنه "يوسطها" هى فى مسعاه لديها لأنها أنجح واسطة خير فى الإدارة التى لم يخب لها مسعى من قبل!.

وضحكت كثيرًا حين عرفت ذلك.. واتهمتهن بعدم الوفاء

لرفضهن الوساطة بينها وبين زميلها، لكنها كعادتها مع الحياة لم تتوقف لحظة أمام هذا الاتهام، ورأت فى الأمر كله جانبه الجميل وهو رأيهن الطيب فيها، وابتهجت غاية الابتهاج حين فاجأنها بإخراج علبة كانت مخبأة تحت مكتب إحداهن، فإذا بداخلها تورتة أعددنها للمناسبة السعيدة وتجمعن حولها فى حماس يوزعنها على الزملاء، وأعطتها "علية" قطعة منها فتناولتها مبتهجة وهى تقول:

تورتة واحدة فقط مقابل ثلاث زيجات سعيدة؟ يا له من جحود!.

فانفجر الجميع ضاحكين.. وساد الإدارة جو بهيج لم تشهده من قبل فى الزيجات السابقة!.

تردد بعض الوقت فى قبول دعوة زميله لحضور احتفاله بعيد زواجه الثالث لسطحية علاقته به.. ولارتباطه أيضًا بموعد مقدس كل مساء لا يتخلف عنه، لكن شيئًا ما دفعه للاستجابة فى اللحظة الأخيرة. توجه إلى بيت الزميل حاملاً علبة التورتة، وتوافد الزملاء وزوجاتهم فساد المكان جو المرح. تعزّى ببهجة الحفل قليلاً عن افتقاده لسهرته اليومية مع رفاق المقهى وسهرة لعب الورق التى تليها فى بيت أحدهم. ليل الأعزب الوحيد سجن تُفتل قضبانه من خيوط السأم والوحدة وفقدان الرفيق.

أصدقاء المقهى.. أصدقاء وليسوا أصدقاء فى نفس الوقت. عرف الطريق إليهم حين نقل إلى الأسكندرية من القاهرة منذ سنوات وضاق بوحدته فيها. قدمه لهم زميل له بالعمل فانضم إلى الشلة متلهفًا على اكتساب الصداقات. واكتشف بعد قليل أنهم يتسللون من المقهى فى التاسعة بأعذار مختلفة وهم يتهامسون أو يتبادلون الإشارات المبهمة. سأل زميله، فعرف منه أنهم يتجمعون فى المقهى من السابعة حتى التاسعة مساء ثم يتسلل خمسة أو ستة منهم إلى بيت أحدهم، فيبدأون سهرة أخرى مع الورق تمتد حتى الفجر. الورق رفيق الوحدة والسأم. وشريك من لا شريك له

12

فى الحياة. رحّب بالانضمام إليهم واكتشف بعد أن اندمج فى حلقتهم شخصيات أخرى لهم لا تتكشف إلاّ على مائدة اللعب. ميولهم العدوانية وغرائزهم البدائية تنطلق على سجيتها مع الاندماج فى اللعب فتعبّر عن نفسها بلا ادعاء. عرف بينهم الكاذب.. والمخادع.. وحادّ الطباع الذى لا يحتمل الخسارة فاندمج فيهم غير نادم على تدهوره! يبدأون السهرة مهذبين باسمين يتبادلون المجاملات، فإذا اندمجوا فى السباق المحموم نسوا كل الاعتبارات، وشغلوا بمعركة الدفاع عن النفس وإثارة اللعب حتى يفيقوا مع اقتراب الفجر فينهضون تالفى الأعصاب شبه متخاصمين لا يكلم أحدهم الآخر! يلتقون فى مساء اليوم التالى بالمقهى فتعود إليهم ابتساماتهم ومجاملاتهم، وكأن شيئًا لم يكن! عرف قانون اللعبة بالممارسة فاحترمه، وحاول أن يتواءم معه رغم نفوره الباطنى منه، إذ لا بديل لذلك إلاّ السأم والوحدة فى ليل الأعزب المزمن. فاتت فرص الارتباط وضاعت فتخطى الأربعين بعام، ولم يبق له إلا الحسرة والتوحد فى الذات. دنيا الأعزب المزمن نفسه وحدودها شخصه ولا عجب، إذ كيف يهتم بالآخرين من لا يهتم به أحد سواه؟ قالت له فتاته وهما فى نهاية سنوات الدراسة الجامعية: لم تبق إلاّ أيام ونتخرج فعدنى بأن تتقدم لأخى بعد الامتحان وسأذلل لك كل الصعاب.. ولا تخش عقبات البداية، فهكذا يتزوج كل الشباب! فتردّد أمام خطوة

البداية والتمس لنفسه العذر عن جبنه فى ضعف إمكانياته وثراء أخيها.

انتظرته بعد التخرج عامين طويلين، وألـحّت عليه أن يتقدم قبل أن يفوت الأوان فتعثر فى تردده وعجزه حتى أفاق على خبر ارتباطها بآخر وزواجها منه! لسنوات طويلة اتهم نفسه بالجبن والعجز وأقسم لنفسه ألاّ يتردد من جديد إذا صادف الحب الحقيقى فى حياته مرة أخرى، فمضت السنوات.. ولم يظهر فى الأفق بشيرٌ له.

تعرف بأخرى.. وأخرى فما استطاع أن يقنع نفسه بإحداهن ولا اقتنعت به أو أحبته واحدة بمثلما أحبته فتاته القديمة.

انزلقت قدمه إلى مائدة اللعب فأحرق عليها ساعات ليله بلا حساب واكتسب شيئًا فشيئًا طباع الـمقامرين.. يتهمونه فى الشلة بالـجرأة والـمغامرة فى اللعب.. فيبتسم باطنه فى حسرة وهو يتذكر تردده أمام السعادة وعجزه عن نيلها!

تقدم فى عمله رغم سهر الليل الطويل واستقرت أحواله المادية فامتـلك الشـقة والسـيارة ورصـيدًا كافيًا لبداية مشروع الزواج.. لكن أين فتاة القلب التى تسكن العش الخالى.. وماذا يفيد أن تبنى بيتًا لا يجد سكانه؟

فى حمأة اللعب قد تُفلت الحكمة من بعض الأفواه فنصحه أحد

رفاقه بنسيان حلم الحب والإقدام على الزواج بالطريقة التقليدية.. وقال له آخر:

هاأنت ترانا جميعًا متزوجين.. ومهما كانت مساوئنا وأخطاؤنا فنحن نعود آخر الليل إلى بيوت تُدفئها أنفاس الزوجات والأبناء الذين نتحمل مسئولياتنا عنهم.. وتعود أنت إلى بيت بارد موحش لتنتظر موعد اللعب التالى، وتصاب باكتئاب شديد إذا عرقل اجتماعنا شىء.. وتلح علينا كل ليلة بل وتتوسل لنا لأن نطيل اللعب ساعة أخرى فلا نستجيب لك فلماذا لا تتزوج كما يتزوج الناس.. أحببت أو لم تحب.. وأنت الفائز فى كل الأحوال.. فحتى هموم الزواج ومشاكله أرحم كثيرًا من وحدتك بين جدران الليل.

سلّم بحكمة النصيحة وقرر الأخذ بها، وسأل رفاق اللعب أن يرشحوا له من يرونها ملائمة له.. فرشحه بعضهم لقريباته.. والتقى بكل منهن فى زيارة عائلية فلم يحالفه التوفيق مع إحداهن.

اعترف لنفسه بأنه قد ضحىّ بسهرة اللعب هذه الليلة جريًا وراء الأمل الغامض فى الالتقاء بمن تخلصه من وحدته فى سهرة عائلية مماثلة.. فترى أين هى وسط زحام هؤلاء المدعوين؟ تأمل الحاضرين فى بيت زميله، وتساءل ترى متى كانت آخر مرة شارك فيها فى مناسبة عائلية كهذه المناسبة؟ فرّقت ظروف الحياة بينه وبين أصدقائه

القدامى.. وباعدت غربة المكان بينه وبين إخوته وأسرته.. فلم يعد يلتقى بهم إلاّ فى المناسبات القليلة.

وبين زحام الحاضرين لفتت نظره بوجهها المريح وملامحها التى توحى بالأمان فتساءل فى باطنه. تُرى من تكون؟ وتأمل المدعوين ليحاول اكتشاف علاقتها بأحدهم فلم يلحظ ارتباطها بأحد. لاحظ طبيعة تصرفاتها فأيقن أنها تنتمى لصاحب الحفل أو لزوجته. وبينما كان مشغولاً بها فوجىء بها أمامه تحمل إليه طبق الجاتوه فتناوله شاكرًا وباسمًا، وقال لها على الفور إنه يحس بأنها "صاحبة بيت" وليست ضيفة فهل له أن يتجرأ ويطلب منها كوبًا من الشاى؟ وأجابته بابتسامة ترحيب وعادت إليه بعد قليل بالشاى فشكرها بحرارة آملاً أن تكون خالية القلب!

سأل عنها زميله خلال الحفل فأجابه وهو يتطلع إليه مستفهمًا عن سر اهتمامه بأنها شقيقة زوجته، فأمضى السهرة مركزًا عينيه عليها وكلما التقت عيناها بعينيه ابتسم لها فى ثبات ورجاء!

فى اليوم التالى توجه إلى مكتب زميله فى الصباح ليشرب معه القهوة وأدار الحديث عامدًا عن حفل الأمس إلى أن وصل به إلى هدفه وسأله عن شقيقة زوجته.. فعرف منه أنها ليست مخطوبة ولا مرتبطة وإنما مطلقة منذ عام واحد بعد زواج استمر 8 سنوات بسبب عدم الإنجاب!

اهتزَّ قليلاً حين سمع بمشكلتها مع الإنجاب.. لكنه لـم يتراجع وإنما طلب من زميله أن يرتب له زيارة عائلية يلتقى بـها خلالـها لـمزيد من الاقتراب. والتقى بـها فى بيت زميله ولـم تَـخْف نيتُه عليها.. فأبدت تـجاوبًا معه وحدثها طويلاً عن حياته ووحدته.. وسألـها أن تـحكى له عن حياتـها فروت له باختصار عن سعادتها الـمنهارة.. وانـهيار زواجها بعد 8 سنوات بسبب استجابة زوجها السابق لضغط أهله عليه وزواجه من أخرى لينجب منها. وروت له عن موافقتها راغمة على الاستمرار معه بعد زواجه إلى أن أنجب زوجها طفلاً من زوجته الجديدة وشُغل بهما عنها تمامًا.. ثم استجاب لضغط زوجته الـجديدة عليه.. فطلقها ووجدت نفسها مطلقة وحيـدة فى الثانية والثلاثين من العمر، وعادت لتقيم مع أمها بعد أن تزوجت شقيقتها وشقيقاها. تذهب إلى عملها صباحًا وتعود لتمضى يومها بين جدران بيتها ومشكلتها هى الليل! فأمها تنام فى الثامنة مساء على الأكثر.. وتبقى هى وحيدة ساعات المساء الطويلة تشاهد التليفزيون وتقرأ وتتقلب فى فراشها حتى الثانية أو الثالثة صباحًا. ساعات الليل طويلة وموحشة وجافة.. لا شىء يبلل من جفافها أحيانًا إلاّ دموعها الصـامتة حين تستسلم للضعف ومرارة الذكريات.

وسألها واجلاً:

هل مازلت تحبينه؟

وأجابته صادقة:

أكذب لو قلت لك إنى أكرهه.. لكن مرارة القلب أقوى من كل المشاعر!

واستراح لإجابتها واعتبرها مدخلاً أمينًا لاكتساب الثقة. وتكرر لقاؤهما فى بيت زميله وازداد اقترابهما..

وسألته بعد قليل:

ألا تزعجه حقًا عدم قدرتها على الإنجاب، فأجابها صادقًا بأنه قد تردد قليلاً أمام الأمر حين عرف به، لكنه حسم تردده بالتسليم بفوات أوان الإنجاب أو الأمل فيه وساعدته وحدته المزمنة على تقبل الأمر بروح واقعية.. وسعدت بإجابته وأملت أن تدعم روابطهما الأيام.

واستراح إلى اختياره فصارحها بكل شىء عن حياته حتى بإدمانه للعب فى وحدته.. ومخاوفه من ألا يستطيع بعد الزواج أن يمتنع نهائيًا عنه فى بعض الليالى فيتركها لوحدتها مع الليل. واهتزت أمام الاحتمال لكنها قالت له بعد أيام إنها قد قارنت بين وحدتها الكلية فى بيت أمها ووحدتها الجزئية المحتملة بعد الزواج وانتهت إلى تفضيلها للارتباط به، ووعدته بألاّ تثير له المتاعب بسبب هذه الآفة بعد الزواج إلى أن يتخلص منها.

وتزوجا وحضر رفاق اللعب زفافه وانصرفوا مبكرين ليلحقوا بموعدهم المقدس متأخرين عنه بعض الشىء إكرامًا لزميلهم!

وأحسّ منذ اللحظة الأولى التى اختلى بها فيها بتطلعها الحزين إلى الاحتماء به من التعاسة فرقّ قلبه لها. تفرغ لها أيام العسل ليلاً ونهارًا فأنست لصحبته وشَغَلت حياته باهتمامات جديدة. ضبطته بعد شهر من الزواج ساهمًا فى بداية المساء فقالت له بفطنة:

لماذا لا تذهب لرؤية أصدقائك القدامى.. وأمضى أنا هذه الليلة مع أمى!

وقدَّر لها حرصها على إبعاد السأم عنه.. فانطلق مبتهجًا إلى شلته القديمة وقوبل فيها بعاصفة من الترحيب والاتهام بالجحود! تكررت الزيارة من حين لآخر ولاحظ عدم ضيقها بها، فرضى عن حياته معها ومضت أيامها هادئة.

كفَّت زوجته عن المبيت مع أمها فى الليالى التى يستجيب فيها لنداء اللعب فأصبحت تمضى ليلتها فى مسكنها الخالى تتقلب فى فراشها، ولا يسكن لها جانب إلاّ حين تحسّ به وهو يندس إلى جوارها فى الفراش فتمسك بيده كأنما تطمئن إلى أنها لم تعد وحيدة.

وعلى عكس ما أملت من أن تسهم زياراته المتباعدة لرفاق اللعب فى إبعاد السأم عنه حتى يزداد تمسكًا بها، تقاربت مواعيد

زياراته لـهم حتى كادت تصبح يومية بعد شهور، فطالت وحدتها وأطلَّ العتاب الصامت من عينيها. وبعد عام آخر أصبحت القاعدة هى سهرة الرفاق والاستثناء هو أن يبقى معها.. فاستقر الحزن الصامت فى أعماقها. ثم نهضت من نومها ذات يوم مفزوعة لحلم كئيب وتحسست مكانه الخالى فى الفراش بأسى، وأضاءت النور ونظرت فى الساعة فوجدتها الثالثة صباحًا. فأطفأت النور وظلت تحدّق فى فراغ الظلام وهى تفكر فى هذا الحلم الغريب الذى يراودها منذ فترة وترى فيه نفسها تهوى من فوق جبل عال.. وتمد يدها إلى زوجها لينقذها.. فلا تجد يده!

منذ أسابيع وهى تحلم بهذا الحلم.. وترويه لزوجها فيطيب خاطرها.. تسلل ضوء الصباح الضعيف إلى الحجرة وتسلل زوجها وأحس بها مستيقظة فنظر إليها محرجًا ومرتبكًا.. وحاول أن يبرر تأخره الشديد هذه الليلة فقاطعته قائله بصوت خافت:

رأيت نفس الحلم مرة أخرى.. ولم أجدك إلى جوارى..

جلال طلقنى!

وانزعج لما قالته وطلب تأجيل مناقشة الأمر إلى اليوم التالى.. وغيَّر ملابسه وذهب إلى عمله بلا نوم.. وعاد فى الظهر فوجدها تنتظره فى الصالة.. وقد أعدت له طعام الغداء فتناوله على عجل وهو يقاوم النعاس ودخل إلى غرفة النوم فصاحبته إليها.. ورتبت له الفراش

فدخل فيه سعيدًا بنسيانها للمطلب المزعج وأمسك بيدها شاكرًا وباسمًـا ومعتذرًا فسمعها تقول له:

عفوًا سأغادر البيت بعد نومك.. وسأنتظر فى بيت أمى حتى تتم الإجراءات!

وفقد رغبته فى النوم فجأة فانتفض جالسًا فى فراشه وأمسك بيدها وسألها هل أنت تعيسة معى إلى هذا الحد؟.. هل فشلت فى أن يكون لى أى رصيد من حبك.. إننى معترف بخطأ عودتى إلى اللعب.. لكنه لن يكون هناك أمل فى الإصلاح إذا لم يكن لى أى رصيد لديك من الحب والرغبة المشتركة فى استمرار الحياة.. فهل فقدت كل رصيدى عندك؟.. أم أننى عجزت من البداية على أن أفتح لنفسى حسابًا لديك؟! وتطلع إليها بنظرة رجاء.. فأحنت رأسها متفادية نظراته وانسابت دموعها بغزارة وهى تقول له:

أنت رقيق وهادىء الطبع وحنون.. ولا أريد أن يفشل زواجنا لكنى أخاف سجن الليل ولا أريد أن أعانى الوحدة كل ليلة ولقد فكرت طويلاً فوجدتك بعد أن تسللت إلى قلبى شيئًا فشيئًا.. وأصبحت كل حياتى تعود فتتسرب من بين يدى وأجد نفسى وحيدة بلا نهاية مع عذاب الليل كما كنت فى بيت أمى.. ولم أحتمل عودة المعاناة وأريد أن أوقف القصة قبل أن تفسد حياتنا بالنزاع والشجار.

وأجهشت فى بكاء مرير.. فانتفض من فراشه واقفًا وقد اكتسب قوة مفاجئة غلبت إجهاد السهر.. وراح يتمشى فى غرفة النوم لفترة طويلة مطرقًا يفكر وهى جالسة على حافة الفراش تبكى.. ثم توقف فجأة أمامها وقال لها:

سناء.. ما رأيك فى أن نعيش بضعة أعوام من حياتنا على ساحل البحر الأحمر؟ لقد عرضوا علىّ فى العمل منذ أيام ترقيتى ونقلى إلى مدينة الغردقة، لكنى اعتذرت عن الترقية والنقل ربما ترددًا أمام مطالبتك بالانتقال من عملك إلى هناك وربما لكيلا أبتعد عن الأسكندرية ورفاق السهرة، والآن قد غيرت رأيى.. وقررت أن أقبل الترقية والنقل.. وتستطيعين بسهولة الانتقال للعمل معى وسوف تستمتعين بالحياة هناك فلن يكون فيها سهر ولا لعب.. ولن يكون لأحدنا سوى الآخر وسوى استقبال الأهل والأقارب من حين لآخر فى زيارات ممتعة فى الاستراحة الواسعة التى سنقيم فيها.. فما رأيك فى هذا الاقتراح؟

ورفعت إليه رأسها مندهشة ودموعها مازالت تنساب على خديها وظلت ترنو إليه صامتة فرأى دمعها وهو يخفّ تدريجيًا حتى توقفت آخر قطره منه فى عينيها وترددت فى السقوط.. ثم رأى أسارير وجهها

تنفرج رويدًا رويدًا وبداية ابتسامة أمل جديدة ترتسم ببطء فوق شفتيها، ثم استسلمت أحاسيسها لداعى الابتهاج.. فاتسعت الابتسامة بالتدريج حتى بشّرت بتحولها لدى أى مثير جديد للبهجة إلى ضحكة ارتياح كتلك التى تتسلل للإنسان رغمًا عنه حين يكتشف فجأة أنه قد نجا من هاوية سحيقة كاد يسقط فيها فراح ينظر إليها مندهشًا ويتخيل حاله لو كان قد هوى إليها بالفعل!.

ككل الفتيات كانت تـحلم بفتى القلب الذى سيظهر فجأة فى حياتها فتنهار أمامه حصونـها المغلقة، لكنها لطبيعة واقعية فيها أجّلت كل شئون القلب إلى ما بعد انتهاء الدراسة وتـحسن الأحوال.. فهى فتاة جـميلة جذابة تدرس بأحد الـمعاهد، لكنها كبرى إخوتـها وربة بيتهم منذ رحيل أمها، ومستشارة أبيها الأرمل وصديقته الأولى، وقد تحملت مسئولية الأسرة وهى فى سن الثانية عشرة من عمرها، فأكسبتها الهموم نظرة جادة للحياة فهى المسئولة عن تدبير شئون البيت بمرتب أبيها المحدود، وعن تربية إخوتها ومراقبة دراستهم وتصرفاتهم، ومن أجلهم تنازلت راضية عن حقها فى الالتحاق بالجامعة ورضيت بمعهد لـمدة سنتين لتتخرج سريعًا وتعمل وتشارك أباها أعباء الـحياة. وحين حصلت على شهادتـها ظنت أن نصيبًا كبيرًا من همومها قد انزاح عن كاهلها.. فهى تستطيع الآن أن تعمل فى وظيفة مناسبة وتعود إلى أسرتـها فى الثانية بعد الظهر كل يوم، وتساهم بمرتبها فى تـخفيف جفاف حياتـها.. لكن أحلامها تبددت سريعًا فى الـهواء فالوظيفة حلم بعيد المنال لمن لا سند له من أسرة أو نفوذ، وكل الأعمال التى أتيحت لـها كانت تتطلب منها أن تعمل من الصباح حتى المساء فيتعذر عليها إدارة بيتها ورعاية إخوتـها. وتنقلت بين الأعـمال فلـم تسـتقر فى عمـل طويلاً.. واضطرت لتركـه كلما

خيّرت بينه وبين مسئوليتها العائلية ثم استسلمت أخيرًا لليأس ورجعت إلى بيتها تنتظر فرصة أفضل من السماء.

وجاءتـها الفرصة من مـجال بعيد عن توقعاتـها.. فلقد أحيل أبوها إلى الـمعاش وتسلم من الـهيئة التى يعمل بـها مكافأة نـهاية الـخدمة وكانت "ثروة" بالنسبة للأسرة البسيطة، فقرر الأب أن يقسمها على أولاده حسب أنصبتهم الشرعية ويودعها لهم فى دفاتر التوفير.. ونفذ الأب إرادته ورتب حياته على أن تعيش الأسرة بمعاشه الذى ينقص كثيرًا عن مرتبه. وأحس بأنه قد أدى بذلك رسالته تـجاه أولاده.. خاصة ابنته الكبرى شريكته فى الـهموم منذ صباها.. واحتفظ الأب بدفاتر توفير الصغار فى حوزته وسلم الكبرى الرشيدة نصيبها مطمئنًا إلى حكمتها، فلم يمض شهران حتى كانت قد حلّت مشكلة العمل بطريقة غير مألوفة لمثيلاتها فسحبت رصيدها من دفتر التوفير ودفعته كتأمين لشركات توزيع الصحف واشترت مائدة طويلة.. وبعد يومين توقفت سيارات توزيع الصحف والمجلات أمام عنوان بيتها القديم وأنزلت "رزم" الصحف والمجلات وانصرفت. وظهر فى الشارع "فرش" جديد لبيع الصحف والمجلات والكتب تديره فتاة جميلة ترتدى القميص وبنطلون الجينز الواسع وتتعامل مع الجميع بجدية واحترام!

وأصبحت الفتاة الجادة تبدأ يومها فى الخامسة صباحًا.. فتتسلم الصحف وتصفّها على مائدتها المثبتة بجدار بيتها.. وتعلق المجلات بالمشابك على حبال كحبال الغسيل فوقها.. وتقف فى انتظار زبائن الصباح، وقبل الظهر تجمع ما تبقى لديها من تجارتها وتحملها إلى شقتها بالدور الأرضى.. وتعود الفتاة إلى أسرتها وإخوتها. فتدير شئونهم كما كانت تفعل طوال السنوات الماضية.. وسعدت الفتاة بعملها ورضيت به وبمتاعبه وعرفت بالتجربة كيف تسد ثغرات المتاعب مع مندوبى التوزيع، وتتجنب أخطاء الحساب معهم فرسخت أقدامها فى المهنة الجديدة واكتسبت احترام الجميع.

وذات صباح رأت وجهًا جديدًا لشاب وسيم يمد إليها يده صامتًا بثمن الصحيفة، ثم يمضى بها مطرقًا وغارقًا بين صفحاتها. ولاحظت رغم زحام زبائن الصباح أنه لم يحيّها أو يتودد إليها كما يفعل الآخرون. وتكرر ظهوره كل يوم بعد ذلك.. يأتى فى السابعة والنصف صباحًا ويشترى جريدته وينصرف صامتًا.

وبعد أسبوع من ظهوره فى أفقها اقترب من المائدة فمدّت إليه يدها بصحيفته المفضلة قبل أن يطلبها.. فابتسم شاكرًا ودفع ثمنها ومضى يتصفحها.

وفى اليوم التالى جاء فى موعده فصادفها وهى ثائرة على شاب

عابث حاول أن يتعدى حدود الاحترام فى حديثه معها.. فتوقف صامتًا يستمع إلى احتجاجها.. وإلى دفاع الشاب عن نفسه بأنه لم يقصد بكلامى سوى الدعابة ثم نظر إلى الشاب نظرات صارمة وقال له بهدوء ينذر بالخطر:

لم لا تنصرف وتدع الآنسة المحترمة تمارس عملها فى أمان؟

ثم ركز عليه نظراته متحفزًا.. فلم يجد الشاب بدًا من الانصراف قبل أن يتعرض لما يكره.

وعقب انصرافه سألها:

لماذا لا يساعدك أحد فى عملك ليحميك من أمثال هؤلاء؟

فوجدت نفسها تحكى له بإيجاز شديد بعض ظروفها فلم يخف إعجابه بشجاعتها.. وتمنّى لها كل خير فى حياتها.

وفى المساء خلت لنفسها.. فتأملت وجهها فى المرآة طويلاً ووجدت صورته تطل عليها منها، واستعادت نظراته الصارمة للشاب العابث وتساءلت بإشفاق وأمل:

هل آن للقلب المغلق أن يفتح أبوابه بعد طول انتظار؟

ويومًا وجدها تراجع فواتير الصحف والمجلات.. فعرّفها بنفسه وبعمله كمحاسب بإحدى الشركات وعرض مساعدتها فى حساباتها

إذا احتاجت لذلك، فشكرته باسمة وواعدة بأن تستفيد من خبرته فى أقرب وقت.

وبعد يومين دعته لزيارتها فى بيتها ليساعدها فى مراجعة حساباتها وجاء فى الموعد فرحب به أبوها.. وجلست إلى جواره وفتحت أمامه ملف حساباتها، فقدّم لها اقتراحات مفيدة فى كيفية ضبطها وترتيبها بطريقة سليمة وغادر البيت مشكورًا من الجميع.

وتكررت زياراته لبيتها.. واعتمدت عليه فى حل بعض المشاكل الحسابية مع شركات التوزيع فأدى المهمة على خير وجه، واعترفت لنفسها أن ما يجمع بينهما أقوى من الحسابات وأهم من العمل.. واعترف هو لنفسه بأنه معجب بهذه الفتاة الشجاعة الوفية لأهلها، لكنه تساءل مشفقًا هل تقتنع بها أسرته المحافظة؟

وبعد فترة أخرى تعمقت خلالها المشاعر.. وفضحتها العيون والتصرفات، صارحها بأنه يرغب فى الارتباط بها، لكنه لن يقوى على مواجهة معارضة أسرته بسبب الاعتبارات الاجتماعية المعروفة.. فوالده ضابط كبير بالمعاش وشقيقاه متزوجان من طبيبة وكيميائية وشقيقته زوجة لضابط كبير أيضًا وهو أصغر أشقائه، ولن يقبل أبوه وأمه وإخوته بزواجه من "بائعة صحف" مع أنه عمل شريف.. وهى فتاة ممتازة مكافحة.. وفية لأهلها.

.. والحل؟ تساءلت.

فأجابها أن تتوقفى عن هذا العمل.. وننتظر فترة حتى ينسى الجميع عملك هذا أو تجدى عملاً آخر.. ثم أتقدم لخطبتك ونتكتم عملك السابق فلا نشير إليه أو نعترف به لو أشار إليه أحد!

واهتزت الفتاة من الأعماق لكنها لم تستسلم للانهيار أمامه، وطلبت منه أن يعطيها مهلة للتفكير ينقطع خلالها عن زيارتها والظهور أمامها كل صباح.. وسوف تتصل به فى عمله وتبلغه بقرارها.

وانتظر قرارها أسبوعًا فلم تتصل بـه، وذهب إليـها فى الصباح فوجدها تـمارس عملها بلا حـماس.. ووجهها الـجميل شاحب كأنما تعانى من الـمرض، وابتسمت له فى ضعف حين رأته وقدمت له صحيفته فسألـها متى تتصلين بى.

فأجابته:

قريبًا.

وانتظر أسبوعًا آخر وذهب فى الصباح إليها فلم يجدها، وإنما وجد أباها الموظف بالمعاش يبيع الصحف بدلاً منها فانقبض صدره وسأله عنها فأجابه بأن صحتها متوعكة بعض الشىء.. واستأذنه فى أن يزورها فى المساء ليطمئن عليها فرحب به الرجل بعد تردد.

وفى المساء طرق الباب ففتحته شقيقة فتاته الصغرى وتجهمت حين رأته ثم دعته للدخول.. وجلس فى الصالون ينتظر فدخلت إليه بعد قليل فتاته متداعية كأنها لم تنم منذ أسابيع، وانزعج بشدة حين رآها وسألها عما بها من مرض فأجابته فى حزن: أنت!

وسألها مذعورًا: أنا؟!

فقالت فى أسى: نعم أنت. أنت "مرضى" فأنت أول إنسان أحبه فى حياتى وأتمناه لنفسى.. وقد صدمتنى صدمة العمر بأنك لا تحبنى كما أحبك.

ونفى الاتهام عن نفسه بشدة.. لكنها أصرّت عليه.. وأكدت أنه لو كان قد أحبها بعض حبها له لقبلها كما هى.. ولم يخجل من ظروفها ولم يحاول أن "يجمّل" صورتها لكى يقنع بها أهله. فى حين أحبته هى قبل أن تعرف أى شىء عن ظروفه، ولو كانت ظروفه غير مناسبة لها لما فرطت فيه بعد أن أحبته كما يفرط فيها هو بسبب ظروفها.

وبكت.. وهى تشرح له أن عملها يساعدها على تربية إخوتـها، وأنه لو كان الأمر يـخصها وحدها لما ترددت لـحظة فى التضحية به من أجله، لكنه أمر يتعلق بإخوتـها فهل يرضى لـها بأن تكون أنانية وتفضل سعادتـها على مصلحة إخوتـها.. وأبوها مريض لا يقوى على ممارسته.. وإخوتـها صغار لا يتحملون مسئوليته؟

ولم يجبها بشىء.. لكنه نادى على أبيها من مجلسه فى الصالون، وجاء إليه فمدَّ إليه الشاب يده طالبًا أن يقرأ معه فاتحة ابنته، ففوجىء به يعتذر قائلاً له: نحن لا نخطف أولاد الناس يا ابنى نحن بسطاء نعم، لكننا شرفاء ولنا تقاليدنا مثلكم، فإذا أردت أن تخطب ابنتى فتفضل فى صحبة أسرتك فى الموعد الذى تراه! وانصرف الشاب صامتًا.. ولم يعد.

ومضت ثلاثة شهور اختفى خلالها تمامًا من حياة الأسرة.. ولم يظهر أثناءها فى موعد الصباح، فيئست منه حتى الموت وتجنبت الأسرة ذكر اسمه أو الإشارة إليه أمام فتاتها المصدومة فى حبها الوحيد.. بعد أن تكرر بكاؤها رغمًا عنها كلما جاء ذكر اسمه عرضًا على ألسنتهم.

ثم دق جرس الباب فى شقة الأسرة البسيطة ذات مساء وفتحته الفتاة فوجدت فتاها "الخائن" أمامها ومعه رجل مهيب المنظر وسيدة وقور، فوقفت ذاهلة جامدة فى مكانها إلى أن سمعت صوت الرجل المهيب يقول باسمًا:

هل هذه هى عروسك الجميلة.. عفارم عليك يا ولد!

فانطلقت فرحتها الطاغية بلا حدود.. وتراجعت مضطربة الخطوات تدعو الضيوف للدخول.

وخطب الأب لابنه فتاته المكافحة.. وشرح لأبيها أن الله قد وفقه للحصول لابنه على شقة فى نفس الشارع الذى يقيمون فيه، ليكون فى موقع وسط بين الأسرتين بعد الزواج لأنه أصغر أولاده ولا يريده أن يبتعد عنه بمسكنه كباقى إخوته.

وبعد شهور شهدت شقة الأسرة أول أفراحها منذ وفاة الأم قبل 15 عامًا، وانتقلت العروس الجميلة إلى مسكن فتى الأحلام القريب وغابت عن فرش الصحف والمجلات والكتب طوال شهر العسل السعيد.. لكنها مع أول يوم بعد انتهائه.. ظهرت فى مكانها القديم أمام الصحف فى السادسة صباحًا بالضبط، وفى السابعة والنصف مرّ بها شاب وسيم فى طريقه إلى عمله.. فأخذ صحيفة الصباح ومعها ابتسامة حب عذبة.. ولم يدفع نقودًا!

فى أعماق القلب

يوجد شىء غريب

أرى ظلال الضوء

تخفى جزءًا سريًا منى

يختبىء من حياتى

ويعيش فى الظلام

وأرى بعين الخيال

إنسانًا لا أعرفه

يفهم أفكارى

ويلبى لى احتياجاتى

إنه لص القلوب

سرق منى قلبى

ومضى بعيدًا

يا إلهى - إنه أفضل من حلم

وأجمل من واقع!

"من قصة لص القلوب"

هكذا كانت تقول كلمات الأغنية الأجنبية التى تستمع إليها الزوجة الشابة، وهى تجلس إلى مكتبها الصغير فى الردهة الصغيرة الفاصلة بين حجرة نومها.. وحجرة الأولاد.. لقد اختارت منذ زمن بعيد هذا الركن الهادئ، ووضعت فيه مكتبًا صغيرًا ومقعدًا وأباجورة رأسية.. وجهاز الستريو الصغير.. وجعلت منها واحتها الصغيرة التى تجد فيها نفسها الحقيقية بعد نوم الزوج والأولاد.

أجمل ساعات اليوم هى هذه الساعات من الليل، نام زوجها كعادته فى التاسعة مساءً، ونام الأبناء وبقيت وحدها تبحث عن نفسها، تسمع الأغانى الأجنبية وتبوح بخواطرها المكتومة فى الدفتر الأزرق الذى لا تسمح لأحد بأن يطلع عليه، تسأل نفسها لماذا تكتب خواطرها على الورق وهى ليست كاتبة ولا أديبة.. وتجيب عن سؤالها بأنها لو استطاعت أن تتحدث لأحد بما يجول فى فكرها لما احتاجت لأن تكتب خواطرها! زوجها يسخر من محاولاتها لأن تعبر عن نفسها بالكتابة.. ويسألها لماذا تكتبين كل هذه الأوراق!

فتتجاهل سؤاله وتحوِّل مجرى الحديث إلى مجال آخر!

وبماذا تستطيع أن تجيبه؟ هل تجيبه بما قالته الزوجة فى الفيلم الأمريكى الذى سجلت منه هذه الأغنية حين قالت لزوجها ردًا على نفس السؤال:

لو كنت أستطيع أن أتكلم معك.. لما لجأت إلى كتابة أفكارى.

وهبها قالت ذلك فكيف تشرح له أن الكلام معه لا يعنى الكلام الخاطف الجاف فى شئون الأولاد ومصروف البيت.. ومشاكل عمله الدائمة التى يصحبها معه ثم يحل الصمت الثقل بينهما فى كل مكان يتواجدان فيه؟ هل تقول له إن فى "أعماق القلب" جزءًا سريًا ترى فيه بعين الخيال إنسانًا يفهم أفكارها ويلبى لها احتياجاتها النفسية والعاطفية.. وتتحدث معه بلغة مشتركة!

لو قالت له ذلك.. لتحول الحديث العابر إلى أزمة عائلية يشترك فيها الأهل والإخوة، وتنعقد من أجلها المجالس العائلية وتقف فيها مدافعة عن نفسها ضد الاتهام البشع بالخيانة.

الخيانة! لا.. إنها لا تعرفها.. ولا تسمح لها طبيعتها بها.. لكن النفس معذبة دائمًا بما تتطلع إليه وتفتقده فى حياتها.. وهى تفتقد لمسات الحب ولغة القلب.. والمفردات المشتركة بينها وبين شريك حياتها، لقد تزوجته هربًا من الحب وأملاً فى أن يعوضها عنه.. فخابت الأحلام والآمال.. فبعد تخرجها فى الجامعة نجحت أسرتها فى تعيينها بوظيفة مرموقة، وذهبت لتتسلم عملها فتعرفت على المدير الذى ستعمل معه. وللوهلة الأولى التى صافحته فيها أحست أن حياتها سوف ترتبط بهذا الرجل بشكل أو بآخر.. لماذا؟ لا تعرف ومازالت

حتى الآن لا تدرى.. وكل ما تذكره هى أنها عادت إلى بيتها ومازالت صورة الرجل فى خيالها لا تفارقها.. وتأكدت توقعاتها الغريبة بعد أيام قليلة، واقترب منها واقتربت منه، ورأت فيه رجلاً وسيمًا شديد الجاذبية والرجولة، شديد الاعتداد بنفسه فى غير غرور حازمًا فى غير عنف.. ورقيقًا فى غير ضعف.. واعترفت لنفسها بعد شهور بأنها قد وقعت فى حبه، وأنه أول تجربة عاطفية فى حياتها. ولم تَبُح له بمشاعرها لأنه زوج وأب لولدين، ولم يغير من تصميمها على ذلك ما سمعته من أنه يقاسى الأمرين فى زواجه التعيس مع زوجته المتسلطة المستهترة.. فكتمت مشاعرها واكتفت بما تحسه من أمان وارتياح فى القرب منه، وأصبحت تستشيره فى كل أمورها وتستريح إلى رأيه وتلمس بعد نظره وحكمته وإخلاصه فيما تعرضه عليه من أمور، لكن إشارات القلوب تخترق حواجز الصمت فلم تمض شهور أخرى حتى فاتحها هو بحبه.. وطلب منها بإصرار أن تتزوجه على الفور، وأحست بأنها قد ملكت الدنيا بين يديها وهى تتلقى عرضه، وعادت إلى بيتها طائرة على جناح الأحلام.. لكنها ما إن أغلقت على نفسها باب غرفتها حتى بدأت تراجع نفسها وتتراجع عن فرحتها.. ماذا سيكون مصير زوجته وولديه.. وكيف ستواجه أباها وأمها بزواجها من رجل متزوج وأب ويكبرها بست عشرة سنة؟ وماذا سيقول عنها الأهل والإخوة والأقارب.. وكيف تواجه زميلاتها فى العمل حين تصبح

خاطفة أزواج؟ وعجزت فى اليوم التالى عن الذهاب إلى العمل، وأمضت أيامًا أخرى لا تقوى على الذهاب إليه ومواجهة فارس أحلامها.. وبعد أسبوع طويل لم تنم خلالها نومًا هادئًا مرة.. عادت إلى مكتبها وصارحته بأنها لا تقوى على مواجهة الآخرين بزواجها منه.. ولا تقوى على احتمال حياتها والاستمتاع بها إذا قضت على سعادة زوجة وولدين فى سن المراهقة.. وعبثًا حاول إقناعها بأن زواجه محكوم عليه بالفشل والانفصال سواء ارتبطت به أم لم تفعل.. لكنها كانت قد حسمت أمرها بعد معاناة قاسية.

وفى اليوم التالى قدمت طلبًا لنقلها إلى إدارة أخرى فى مبنى بعيد عنه. وعرف بالأمر فجاء إليها فى مكتبها، وبكى أمامها كالطفل الحائر راجيًا إياها إذا كانت قد رفضته كزوج وحبيب ألا تحرمه فقط من رؤيتها كل يوم فى مكان العمل بلا حديث فى الحب ولا إشارة إليه، وتوصل معها بعد عناء شديد إلى حل وسط هو أن تنتقل من إدارته فعلا.. ولكن إلى إدارة أخرى فى نفس المبنى لكى يتاح له أن يراها ويتبادل معها تحية الصباح فى موعد الدخول.. وتحية الوداع عند الانصراف منه.. وقبلت بذلك ووجدت فيه حلاً لمشكلتها معه.. وأصبحت تحية الصباح.. ونظرة الوداع الصامتة عند الانصراف والحديث القصير فى المناسبات المتباعدة هى كل ما يربطها به. وبعد أسابيع أخرى تقدم إليها شاب من أسرة ثرية.. ففكرت فى الأمر

طويلاً ثم وافقت عليه وكل أملها هو أن ينجح هذا الوافد الجديد فى غزو قلبها وطرد الآخر منه. وأبلغت مديرها السابق بالأنباء الجديدة فتلقاها واجمًا وحزينًا.. ولم يخف عنها مشاعره ولا مطالبته لها بألا تدفن نفسها حيه مع من لا تحب.. وتبتعد بإرادتها عمن يحس برعشة جفنها عن بعد يقرؤها ككتاب مفتوح، ويتخاطب معها على موجة واحدة وازدادت اضطرابًا، لكنها لم تتراجع عما أقدمت عليه وارتجفت حين دس فى يدها فى اليوم التالى ورقة صغيرة خلال تحية الصباح.. وبكت وهى تقرأ فيها كلماته المعبرة: لو ذهبت إلى آخر الدنيا.. فلن تجدى رجلاً يقدم لك ما سوف أقدمه لك أنا من حب وعطاء.

واضطربت علاقتها بخطيبها لفترة.. ولكنها واصلت الطريق بإصرار أشد وتعجلت الزواج منه كأنما تفر من قدر يلاحقها وتخشى أن تستسلم له. وتزوجت خلال وقت قصير.. وبدأت تتهرب من لقاء الصباح.. وتحية الوداع.

وأقبلت على زوجها تحاول أن تملأ به حياتها، وخُيِّل إليها أنها أحبته ونسيت الآخر. لكن شيئًا ما فى أعماقها كان يشدها دائمًا إلى الوراء، وساعدها على ذلك أن وجدت زوجها رجلاً صامتًا معظم الوقت جاف المشاعر.. يستسخف حديث الحب ويراه عبثًا لا يليق بالكبار.. ولا يحدثها إن تحدث إلاّ عن طموحه فى الحياة ومتاعب

العمل.. ولا يستجيب لمحاولاتها لإضفاء أية لمسة من الرومانسية أو الشاعرية على حياتهما.

وأنجبت طفلة.. فتعزَّت بها عما تـحسه من انفصال عاطفى بينها وبين زوجها، وجاء الابن الصغير فزادت أعباؤها العائلية وانشغلت بهما عن هواجس القلب.

ثم كبر الأبناء والتحقوا بالـمدرسة وازداد انشغال زوجها فى عمله فى الصباح وفى المساء، فطالت ساعات وحدتـها فى المساء بعد أن يعود زوجها إلى البيت منهكًا، ويتناول طعام العشاء خطفًا فى المطبخ ثم يدخل إلى فراشه فيرتفع غطيطه من غرفة النوم بعد لحظات. فى التاسعة من مساء كل يوم تجد نفسها وحيدة.. نام الزوج ونام الأولاد وبقيت هى تتحرك فى البيت الصامت وتعجز عن النوم قبل الثانية صباحًا.

وفى إحدى أمسياتها هذه واتتها فكرة أن تشغل نفسها بكتابة خواطرها على الورق.. وتـحدثت بذلك إلى زوجها وهو يتناول عشاءه الـخاطف فسألها متجهمًـا:

ولماذا لا تشغلين نفسك بصنع بلوفرات للأولاد أو خياطة الملابس لهما؟!

وأحست بغصة فى قلبها ولم تعلّق فهى تصنع البلوفرات فعلاً

وتخيط الملابس وتقوم بكل شئون البيت، ومع ذلك تبقى ساعات المساء خالية مملة حتى الثانية صباحًا.

وقررت أن تكتب وتخفى عنه ما تكتبه.. واشترت هذا المكتب الصغير وصنعت هذا الركن الهادىء الذى تستريح فيه إلى نفسها وأفكارها كل ليلة.

وفى أول صفحة من دفتر مذكراتها كتبت:

أحس أنه سيجىء.

ويذلل الصعوبات التى فرقت بيننا.

ويتحدث معى بلغة الحب.

ويطاردنى بين الحجرات.. وأنا أجرى منه.

وأراوغه ضاحكة.. سعيدة.

وواصلت كتابة خواطرها كل ليلة وسألت نفسها ذات مرة ماذا يفعل زوجها لو قرأ هذه الكلمات؟ هل يرميها بالخيانة ويتهمها فى شرفها؟

وسرحت بأفكارها قليلاً ثم قالت لنفسها.. مؤكد سوف يفعل لكن ماذا يجدى كل ذلك الآن.. وهى قد ذهبت ذات يوم منذ ثلاث

سنوات إلى العمل فعرفت أن "الآخر" قد أصيب بأزمة قلبية فى مكتبه قبل وصولها بدقائق ونُقل إلى المستشفى وهرولت إليه مع الزملاء، فما إن وصلوا إلى بابه حتى جاءهم من ينعيه لـهم لقد مات "الآخر".. وتوقفت تـحية الصباح.. ونظرة الوداع ومرضت هى مرضًا طويلاً.. وزهدت بعد شفائها فى العمل وشجعها زوجها على التفرغ للبيت.. فتفرغت له. لقد فات الأوان.. كما يفوت دائمًـا أوان الأشياء الجميلة فى الحياة ولـم يبق إلاّ الأوراق.. وهدوء الليل.. والأنغام الـحزينة.. وفى أوراقها كتبت: لقد اكتشفت بعد فوات الأوان أننى كنت أحب زوجى رغم عيوبه وصمته وجفائه وسعيدة معه.. و"الآخر" على قيد الحياة، أما بعد أن رحل فلم أعد أطيق رؤيته وكثرت المشاحنات واستقر الصامت الجاف بيننا، فأنا الآن أعيش مع رجل رحل عن الحياة.. و"أموت" كل يوم مع رجل يتنفس إلى جوارى!، وسقطت دموعها على أوراقها حين انتهت من كتابة هذه السطور.. وكلمات الأغنية الغربية عن لص القلوب والجزء السرى الذى يعيش فى الظلال.. تنساب فى رقة وحزن.. فى أنحاء المكان!

كانا شابين صغيرين يتبادلان الحب والعطف والأمل فى المستقبل، هى طالبة بالمدرسة الثانوية.. وهو طالب بالمدرسة المجاورة يكبرها بعامين وتعرفهما المدينة الصغيرة التى يعيشان فيها جيدًا، وتراهما كل يوم عائدين من المدرسة يتبادلان الأحاديث الهامة والابتسامات..

وأنهى الفتى دراسته الثانوية وغادر المدينة الصغيرة إلى العاصمة ليلتحق بكلية الطب وانقطع لقاؤهما اليومى.. وأصبحا لا يلتقيان إلاّ كل عدة أسابيع كلما عاد الفتى لزيارة أسرته، لكن المشاعر تزداد عمقًا مع الأيام.

وأنهت الفتاة دراستها الثانوية وقنعت بوظيفة صغيرة فى مدينتها، وشغلت دراسة الطب الفتى فتباعدت اللقاءات بينهما.. وإن لم تنقطع الرسائل. وصمدت الفتاة لرغبة الأهل فى زواجها بعد أن تجاوزت الثانية والعشرين بغير أن يتقدم فتاها لخطبتها.. وضاقت بحصار أهلها.. والراغبين فى زواجها فكتبت إليه تطالبه بالعودة لكى يرتبط بها مع استعدادها لانتظاره حتى يكون قادرًا على أعباء الزواج، لكن الفتى يكتب إليها بأن الطريق أمامه طويل. وتستشعر الفتاة قسوة الغدر وضياع الحلم لكن قلبها لا يخلو من أمل غامض فيه. ثم تسمع بأنه قد ارتبط بابنة أستاذه فى الكلية وتزوج منها.. فتعاتبه فى

خيالها طويلاً وتسلّم باليأس منه.. لكنها لدهشتها لا تحس تجاهه بأى كراهية له بعد غدره بها. وبعد شهور من زواجه تقبل الزواج من موظف البنك الشاب الذى يلاحقها بإعجابه وحبه بلا يأس وتتكيف مع حياتها الجديدة.. وترغب بإخلاص فى أن تحيا مع زوجها حياة هادئة سعيدة.. بل وتشعر بالامتنان لهذا الشاب الذى ظل سنوات يرغب فيها بصدق ويرفض أن يتنازل عن أمله فيها.. وتساعده على التقدم فى عمله.. وتبتهج لكل نجاح يحققه فى حياته وتخلص له كزوجة.. لكنها رغم ذلك تهتم اهتمامًا غامضًا بكل ما يصل إليها من أخبار الطبيب الشاب الذى كان زميلاً لها بالمدرسة، وتسعد فى باطنها بكل ما يحققه من نجاح.

ومضت حياتها مع زوجها هادئة فاترة، لا يقطع فتورها إلاّ ما يصل إليها أحيانًا عن طريق صديقات المدرسة فى الزمن السعيد من أنباء عن فتى القلب القديم.. كتقدمه فى عمله بمساندة أستاذه وصهره.. وكتعاسته مع زوجته المدللة العصبية التى يحرص على استمرار الحياة معها رعاية لابنه الوحيد ولأستاذه الذى قدم له الكثير.

وبلغ بها الاهتمام قمته حين عرفت أن زوجته قد هجرته بعد 18 عامًا من الزواج، وأن ابنه قد اختار أن يقيم معها وتألـمت له على البعد.. وقالت لنفسها إنه لا يستحق هذا الشقاء.. و"حكمت" بغير

دليل سوى قلبها بأن زوجته هي "المخطئة" واستراحت إلى هذا "الحكم العادل" وتمنت له حياة أسعد فى أيامه القادمة.

ومات زوجها بعد عشرين عامًا من زواجهما ولـم تكن قد أنجبت منه فبكته طويلاً وتألمت لفراقه.. وذكرت له دائمًـا عشرته الطيبة الـهادئة ومـحاولاته الـمخلصة لإسعادها. واعتزلت الـحياة بعد رحيله عدة شهور. وبعد عـام من وفاته ثقلت عليها الوحدة والفراغ فى سـكنها الواسع فعادت إلى وظيفتها القديمة، وارتبطت بحكم تشابه الظروف مع أرملة ومطلقة من صديقات الـمدرسة القديمات تعانيان مثلها من الوحـدة وأصبحن يلتقين كل يوم على الغداء ببيت إحداهن.

وفى إحدى هذه الـجلسات قرأت خبرًا صغيرًا عن فتى القلب القديم يقول إنه قد عُيّن رئيسًا لـمركز طبى حديث.. فأثار الـخبر حديث الذكريات وفوجئت بإحداهما تقول لـها: لماذا لا تكتبين إليه مهنئة فتجددين صلتك به؟ وتعجبت للفكرة فى البداية.. لكنها وجدتها تسيطر عليها فى الأيام التالية وتداعبها بأمل غريب!

وكتبت إليه رسالـة بدأتـها بعبارة: هـل لا تزال تتذكرنى؟.. ثم هنأته بما حقق من نجاح وروت له باختصار ما شهدته حياتـها وذكرت له عنوانـها ورقم تليفونـها.

وتعلقت بالأمل فى أن يصلها منه خطاب يحرك ملل حياتها فمضت الأيام وصندوق بريدها فارغ إلاّ من هواء العدم.

وتناولت القرص المهدئ الذى تتناوله كل مساء لتستطيع النوم ودخلت فى فراشها فرن جرس التليفون.. وتهيأت لترد على إحدى صديقاتها فجاءها صوت غريب يناديها باسمها القديم الذى لم يعد أحد يتذكره ويقول لها: هل لا تزالين أنت تتذكريننى؟.

وباتت ليلتها سعيدة تحسُّ بأن حياتها الخاوية قد اكتسبت ثراء وجدانيًا جديدًا.

وتكررت الاتصالات بينهما من حين لآخر.. وفى كل مرة تطلب منه أن يحكى لها ما شهدته حياته من أحداث منذ غادر المدينة الصغيرة.. وروى لها كل شىء عن حياته، واعترف لها بأنه يعيش حياة أعزب منطلق منذ انفصاله عن زوجته وأنه قد عرف أكثر من امرأة لكنه لم يحب إحداهن حبًا حقيقيًا.

وعاشت معه فى الخيال كل تفاصيل حياته اليومية.. وأصبحت تنهض من نومها "فتعرف" بقلبها أنه الآن فى شقته الفاخرة الواسعة يتناول إفطاره المفضل من الجبن الأبيض والخبز المحمص والقهوة استعدادًا للتوجه إلى الكلية ليحاضر فيها طلبته.. وفى الظهر "تعرف" أنه الآن فى عيادته بالمركز الطبى يستقبل

مرضاه.. ويقطع وقت العمل بتناول كوب كبير من الزبادى المضروب بالخلاط، وفى المساء "تعرف" أنه الآن فى ناديه مع أصدقائه وزملائه.. وربما "صديقاته"!.

وأصبح الطبيب الناجح حديث جلسة الظهر الدائم للصديقات الثلاث وفى إحدى الجلسات تساءلت حائرة:

هل يكمن الحب فى إحدى زوايا القلب ويتجمد بثلوج اليأس ومرّ السنين حتى نظنه قد مات فإذا مسته حرارة الاتصال انبعث حيًا وعملاقًا من جديد؟

وتبادلت الصديقتان نظرات الإشفاق.. ثم تساءلت إحداهما بحذر: لماذا لا تقترحين عليه أن يزور مدينته القديمة لكى تلتقيا للمرة الأولى بعد 28 عامًا؟.

وفى المساء جاءها صوته فتلعثمت وهى تقول له: ألم تفكر فى زيارة مدينتك القديمة.. لتراها بعد كل هذه الغيبة الطويلة.. وترى "أصدقاءك" القدامى فيها؟.

وأجابها بأنه يتمنى ذلك لكن مشاغله تحول دونه.

ثم تساءل بخبث:

إذا كانت ظروفى تمنعنى فلماذا لا يفكر هؤلاء "الأصدقاء" فى زيارة العاصمة وسوف أدعوهم للإقامة خلال الزيارة فى فندق جميل؟

وسعدت بالدعوة كثيرًا.. وشغلت خلال الأيام التالية مع صديقتيها باختيار ما سوف ترتديه يوم السفر حين يراها للمرة الأولى بعد هذه السنين، وتأملت وجهها الذى ترك الزمن آثاره عليه، وحاولت أن تطمئن نفسها بأنه لابد يتوقع أن يرى امرأة تقترب من الخمسين وأن الزمن كما سحب آثاره عليها فقد سحبها أيضًا عليه.

وركبت القطار وهى سعيدة ومبتهجة.. وقلقة.. ونزلت فى محطة العاصمة وسارت بين زحام الركاب إلى حيث طلب منها الانتظار، فرأته عن بُعد قبل أن يراها وعرفته من الوهلة الأولى، لكنها فوجئت بأنه لا يزال يحتفظ بوسامته القديمة بل قالت لنفسها إنه أكثر وسامة من أيام المدرسة وأكثر جاذبية!.

وفكرت قليلاً ثم حزمت أمرها وقررت أن ترجع إلى رصيف المحطة لتركب القطار العائد إلى بلدتها، قبل أن يراها ويفاجأ بامرأة متوسطة العمر لا علاقة لها بفتاة الأحلام السابقة.. واستدارت لتتجه إلى الرصيف فأحست بيد تربت على كتفها. والتفتت لتراه يحدق فيها باهتمام ولهفة.. وصافحته محرجة فصافحها وهو يقول لها: إنك أكثر جمالاً.. وشبابًا مما توقعت.. لكن إلى أين كنت عائدة! واستردت بعض طمأنينتها وركبت إلى جواره سيارته وهى فى قمة الابتهاج، وأودعا حقيبتها فى الفندق ثم اصطحبها إلى النادى، وأمضت اليوم كله معه إلى أن أعادها إلى فندقها فى المساء.

وانتهت أيام الزيارة كالحلم وعادت إلى مدينتها وهى سكرى بالسعادة والابتهاج، وأصبح اتصاله بها كل ليلة هو الخيط الوحيد الذى يربطها بالحياة، وسألها بعد شهور للمرة الأولى هل لا تزالين تحبيننى؟. فأجابته بدموع غزيرة، وأكدت له أنها لم "تكف" عن حبه يومًا واحدًا منذ افترقا.

وبعد أسابيع سألها:

ما رأيك فى أن نقضى ما بقى لنا من عمر فى "مكان واحد".. وبكت بحرارة كفتاة فى العشرين تسمع طلب الزواج للمرة الأولى من فتاها.

وأعلن الطبيب الكبير لأصدقائه أنه سوف يصحح خطأ قديمًا ويتزوج من الفتاة التى أحبها خلال صباه وشجعه الجميع على الفكرة.

وأعلنت هى أيضًا الخبر لصديقتيها فابتهجتا له.. لكنها فوجئت بعد أيام بسيدة غريبة تطرق عليها باب مسكنها وتستأذن فى الدخول، ورحبت بها فقدمت الأخرى لها نفسها بأنها "صديقة" الطبيب الكبير منذ 5 سنوات، وأنها تريد أن تتحدث إليها بروح الصداقة عن تقلباته العاطفية ونزواته الكثيرة وكيف خانها خلال ارتباطها به عدة مرات، فكانت تصفح عنه فى كل مرة لأنها "سيدة

مجتمع" متفتحة تنظر للحياة نظرة واقعية وترضى بأن يعود إليها وينتهى الأمر ثم سألتها:

إنك عاطفية.. وشديدة الحساسية كما علمت ولا خبرة لك بالرجال مثلى، فهل أنت واثقة من تحملك لهذه الآلام إذا ارتبطت به؟

واهتزت الأرملة الوحيدة لما سمعت، لكنها حاولت أن تتمالك نفسها وشكرت السيدة المجهولة على "نصيحتها".

وجاءها صوته فى المساء فسألته وهى تكتم مشاعرها:

هل صحيح أنك ضعيف أمام النساء وسوف تهجرنى وراء أول امرأة تلتقى بها بعد الزواج؟.

وأدرك بفراسته ما حدث فأكد لها أن الرجل حين يوفق إلى الالتقاء بحب العمر الحقيقى فإنه لا يخون ولا يهجر.

واستراح قلبها قليلاً.. لكن الأخرى لم ترحمها.. فهى تتصل بها تليفونيًا كل يوم وتبثها بطريقة ناعمة سمومها وشكوكها.. وكلما اقترب موعد سفرها إلى العاصمة لتتزوج شريكها ضاعفت الأخرى من جرعات السموم، حتى كادت تنهار وتخور قواها وتعدل عن الارتباط بفتاها القديم، وأحست الصديقتان بمعاناة صاحبتهما فاتصلت إحداهما بالمرأة الغازية وطالبتها بالابتعاد عن حياة

صديقتها فأجابتها بتصميم: إننى أدافع عن حياتى فأنا مطلقة فى الأربعين وكنت أستعد للزواج منه وأنا أناسبه أكثر من صديقتك لأنى سيدة مجتمع وذهنى متفتح وتفكيرى واقعى، وأستطيع أن أتقبل نزوات زوجى بغير أن أطلب الطلاق وصديقتك عاطفية وحساسة وسوف تنهار نفسيًا وعصبيًا إذا واجهت خيانة زوجها المتوقعة فى أى وقت، فلماذا لا تقنعينها بالانسحاب من هذا الطريق الشائك؟. وتمزقت الأرملة الشابة بين تطلعها القديم للسعادة.. وإشفاقها على نفسها من أن تتعرض لغدر جديد فى سن لم تعد تسمح لها باحتمال الغدر والنزوات. وقررت تأجيل سفرها بضعة أيام احتجبت خلالها فى البيت لا تغادره ولا تكف عن التفكير فى أمرها.

وبعد ليلة طويلة أمضتها معذبة بالسهاد والتفكير نهضت من فراشها فجأة فى الفجر وأيقظت غريمتها من نومها وقالت لها فى التليفون: سأتزوج الرجل الوحيد فى العالم الذى كان ينبغى أن أتزوجه وأنا فتاة صغيرة، ثم أعادته لى الأقدار بعد 28 سنة لأستأنف معه قصة الحب الوحيدة فى حياتى.. فكفى عن محاولاتك لإفسادها. فهو ليس فرصتك الأخيرة كما تزعمين، فأنت فى الأربعين وأنا أقترب من الخمسين وأنت جميلة وجذابة وتجيدين فن الاقتراب من الرجال وسوف تحصلين بسهولة على غيره وربما أفضل منه.. لكنى كما ترين سيدة من الأقاليم وليس لى فنك ولا خبرتك وهو حب حياتى الذى

ضاع مني 28 عامًا ثم استرددته.. لهذا فهو فرصتي الوحيدة للسعادة.. وتعويض الآلام.. وسوف أتزوجه.. حتى ولو عانيت معه.. ثم وضعت السماعة.. ونهضت بحماس وابتهاج تعد حقائبها وتترنم بكلمات أغنية عاطفية قديمة.. وأسرعت إلى المحطة لتلحق بأول قطار.. وبآخر فرصة للسعادة.. وراحة القلب..

كتب للمؤلف

1- أصدقاء على الورق	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 1998
2- يوميات طالب بعثة	أدب رحلات	الطبعة الثالثة 2004
3- هتاف المعذبين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 1998
4- صديقى لا تأكل نفسك	مقالات وصور أدبية	الطبعة السادسة 2001
5- نهر الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2001
6- العصافير الخرساء	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2001
7- صديقى ما أعظمك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة 2001
8- افتح قلبك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة 2001
9- اندهش يا صديقى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة 2001
10- أزواج وزوجات	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة 2001
11- أرجوك لا تفهمنى	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2001
12- رسائل محترقة	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2000
13- أماكن فى القلب	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2000

14- لا تنسنى	قصص رومانسية	الطبعة الثالثة 2000
15- نهر الدموع	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة 2000
16- أقنعة الحب السبعة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2000
17- مكتوب على الجبين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2000
18- أوراق الليل	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2000
19- طائر الأحزان	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2000
20- أعط الصباح فرصة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية 2000
21- الحب فوق البلاط	قصص قصيرة	الطبعة الثانية 2000
22- سائح فى دنيا الله	أدب رحلات	الطبعة الرابعة 2004
23- قالت الأيام	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2001
24- صور من حياتهم	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية 1997
25- أهلاً.. مع السلامة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية 2001
26- قدمت أعذارى	خواطر وتأملات	الطبعة الثانية 2001
27- أيام السعادة والشقاء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 1999
28- حصاد الصبر	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2001
29- صوت من السماء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2001

*** كتب للمؤلف من إصدارات "الدار المصرية اللبنانية"**

30- العيون الحمراء	قصص إنسانية	الطبعة السادسة 2003
31- وقت للسعادة وقت للبكاء	مقالات وصور أدبية	الطبعة السادسة 2003
32- شركاء فى الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2002
33- خاتم فى إصبع القلب	صور أدبية	الطبعة الرابعة 2001
34- وحدى مع الآخرين	مقالات	الطبعة الرابعة 2001
35- ساعات من العمر	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثالثة 2001
36- عاشوا فى خيالى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية 2001
37- ترانيم الحب والعذاب	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة 2003
38- الثمرة المرة	قصص إنسانية	الطبعة الرباعة 2003
39- دموع القلب	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة 2003
40- أرجوك أعطنى عمرك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثالثة 2002
41- من المفكرة الزرقاء	صور ومقالات أدبية	الطبعة الثانية 2001

42- الأرض المحترقة	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2002
43- سلامتك من الآه	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية 2003
44- هو وهي والآخرين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2003
45- حكايات شارعنا	صور ومقالات أدبية	الطبعة الثانية 2003
46- قالت الأيام	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2003
47- الرسم فوق النجوم	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2003
48- تحية المساء	قصص إنسانية	الطبعة الثانية 2003
49- الزهرة المفقودة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2004
50- يوميات طالب بعثة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى 2004
51- سائح فى دنيا الله	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى 2004
52- أرض الأحزان	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2006
53- نافذة على الجحيم	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2006
54- بعد مغيب القمر	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2006
55- فتاة من قاع المدينة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى 2006

المحتويات

أماكن فى القلب

مايخرج من القلب يصل إلى القلب.. ذلك سر العلاقة الدائمة والمتجددة ، التى ربطت بين الأستاذ عبد الوهاب مطاوع وقرائه، ولازالت تؤتى ثمارها، حتى بعد رحيله عنا..

" أماكن فى القلب " مجموعة قصص إنسانية ، تحكى هموم أشخاص وآلامهم ومخاوفهم.. أشخاص يعيشون بيننا.. علّنا نقدر أن نستخلص منها العبرة والدرس الكافيين لإنارة دروب حياتنا ؛ الأمر الذى يجعل رحلة حياتنا تحظى بأعلى قدر ممكن من الأوقات السعيدة ، وبأقل قدر ممكن من اللحظات غير السعيدة...



★ عبد الوهاب مطاوع 1940 ـ2004

★ شغل منصب مدير تحرير جريدة الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب.

★ حصل على جائزة مؤسسة على أمين ومصطفى أمين عام 1992 كأحسن كاتب صحفى يكتب فى المسائل الإنسانية.

★ كان يكتب باب (بريد الجمعة) الإنسانى فى الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام 1982، ويشرف على باب بريد الأهرام اليومى بصحيفة الأهرام.

★ صدر له 52 كتابًا ، يتضمن بعضها نماذج مختارة من [illegible] الإنسانية وردوده [illegible] عليها [illegible] البعض الآخر قد [illegible] أدبية ومقالات فى [illegible]

★ صدرت له [illegible] عديدة، منها: ([illegible] فوق البلاط).



